بقلم
يوهان كريستوف
أرنولد
Johann Christoph
Arnold

لماذا نغفر؟

Why Forgive?

قصص حقيقية عن الشفاء من سرطان البُغض والكراهية

لماذا نغفر؟

Why forgive?

يوهان كريستوف آرنولد
Johann Christoph Arnold

قصص حقيقية عن الشفاء من سرطان
البُغض والكراهية

المقدمة بقلم
ستيف تشالك Steve Chalke

دار المحراث للنشر
PLOUGH PUBLISHING HOUSE

يرجى مشاركة هذا الكتاب مع أصدقائكم. ولا تترددوا في إرساله في البريد الإلكتروني أو طبع الكتاب كليا أو جزئيا، لكن الرجاء عدم إجراء أي تغيير بأية طريقة كانت. وإذا رغبتم في عمل نسخ متعددة منه لتوزيعه على نطاق واسع، أو لإعادة استنساخ أجزاء منه كرسائل إخبارية أو دورية، فيرجى مراعاة القيود التالية:

- لا يجوز إعادة نشره لمكاسب مادية.
- يجب إدراج عبارة الائتمان التالية: "حقوق الطبع والنشر لدار المحراث للنشر Plough Publishing House - سنة 2013م. تم استخدامه بعد الإذن"

إن كتاب يوهان كريستوف آرنولد Johann Christoph Arnold:
"لماذا نغفر؟ Why forgive?" والمقدمة بقلم ستيف تشاك Steve Chalke هو من إصدار دار المحراث للنشر Plough Publishing House، في عناوينها التالية:

Robertsbridge, England
Rifton, New York
Elsmore, Australia

www.plough.com/ar

الترقيم الدولي (ردمك): ISBN: 978-0-87486-866-1

جميع الحقوق محفوظة
Copyright © 2008 by Plough Publishing House
Farmington, PA, 15437 USA
All Rights Reserved

إِهْـدَاءُ الكِتَـابِ:

إلى زوجَـتي "فيرينَـا"
الّتي بِدون مَحبَّـتها وتَعضيدَها لِي،
مَـا كُنتُ كَتبتُ أيَّـا مِن هٰذهِ الكُتُبِ.

المحتويـات

- تقديم 6
- تمهيد: هل يمكنُ الغُفران لمثل هذا الرجل؟ 9

1) سرطان النقمة والبغض 12
2) التغلُّب على الكراهية بالمحبّة 18
3) إنهاء دوامة الحقد 28
4) باركوا الذين يضطهدونكم 36
5) أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ 44
6) الغُفران والعدالة 53
7) الغُفران حينما تكون المصالحة مستحيلة 64
8) الغُفران في الحياة اليومية 70
9) الغُفران في الزواج 83
10) مسامحة الوالد أو الوالدة 93
11) مسامحة أنفسنا 104
12) تحمّل المسؤوليّة 114
13) إلقاء اللوم على الله 123
14) تأثير الغفران ينتشر مثل الموجات المائية 133

- خاتمة: هوذا الكل قد صار جديدا 152
- نبذة من سيرة المؤلف 155
- نبذة عن مجتمعات برودرهوف المسيحية Bruderhof 156

تقديم

ماذا تفعل عندما يُفاجئك صديقك بتصويب طلقات مسدسه نحوك؟

كانت إجابة هذا السؤال سهلة لروجر، فقد استخدم مُسدّسه، وقال أنه لو أتيحت له الفرصة لاستخدمه مرّة أُخرى، لأنّ حياته كانت قد امتلأت برغبة مُتأجّجة في الانتقام لموت ابنته.

كانت ابنته سارة خارج الدار تركب دراجتها عندما صدمها سائق ثمل وماتت في الحال. ولم يكُن هناك شك من جهة الشخص المُتسبّب في تلك الحادثة، وقد أُرسل السائق إلى السجن بتهمة القتل الذي لم يكن يحمل رُخصة قيادة سارية بسبب إدانته سابقا بالقيادة وهو ثمل. لكن لم يكن هذا العقاب كافيا لروجر، فعندما أُطلق سراح السائق من السجن استعار روجر مسدس وأطلق عليه الرصاص مُتعمّداً.

وانقلبت الأدوار الآن، ووجد روجر نفسه مُتّهماً بمُحاولة قتل. والغريب أنّه بالرغم من أنّه كان يُحاكم بتُهمة مُحاولة قتل إنسان بصورة متعمدة لكن تمت تبرئته. أما بالنسبة للسائق، الذي لم يُبدِ أيّ نوع من أنواع الندم، فقد وجدت هيئة المُحلّفين أن موقفه كان مُثيرا للاشمئزاز لدرجة أنّهُم أصدروا حُكمهم بالإجماع بأن السائق "ليس مُذنباً". إلاّ أن روجر لم يشعُرُ بالاكتفاء على الرغم من نجاحه في الإفلات من عُقوبة سجن طويلة.

وعندما تحدّثتُ معه ومع زوجته "كاثي"، كان كلّ ما يُفكّران فيه هو الانتقام من قاتل سارة، فسألت روجر إن كان الضغط على زناد المُسدّس ورؤية ذلك الرجل ينهار من الألم بعدما يطلق النار عليه سيجعله يشعر بارتياح، فقال: "لا. إن ما يريحني هو قتله فقط". فسألت كاثي عن مشاعرها تجاه هذا الأمر، فقالت: "لن أكون سعيدة إن قتل روجر ذلك الرجل، لأن هذا

يعني أنّني لن أتمكن من قتله بنفسي، فأنا أريد الضغط على الزّناد بنفسي، وأودُّ أن أراه ميّتاً، وأعلم أنني مسؤولة عن موته".

تأثّرتُ كثيراً بالحزُن الذي كسر قلبيهما وأنا جالس معهما في منزلهما، ولم يكُن بمقدوري أن أتصوّر المحنة الرهيبة التي كانا يمُرّان بها، بل وشككت في تفكيري بعدالة القانون الذي أعطى قاتل سارة عقاباً مُخفّفاً من جهة، وبرود القاتل وقسوة عنجهيته وعدم إظهاره أيّ شعور بالندم هزَّ بدني من جهة أخرى. لكني لم أستطع مُقاومة الشعور بحزن أكبر بسبب الطريقة التي كانا يتعاملان بها مع موت ابنتهما تلك التي تسبّبت في شعورهما بالتعاسة. وبدا لي أنّ عدم قُدرتهما على الغُفران ونسيان الأمر جعلهما في مواجهة جحيم آخر. فمع صباح كُلّ يوم جديد كانت حياتهما تمتلئ بالشعور بالبغض والكراهية، وهو أمر مُميت مثلُهُ مثل السرطان. لكن، هل هذا ما كانت تريدُهُ سارة حقا لوالديها؛ ذلك الجحيم الحيّ الذي يُدمّر حياتهما بالرُغم من أنّه ليس له أيّ تأثير على القاتل نفسه؟!

هل هناك طريقة يستطيع بها أمثالُ "روجر" و "كاثي" أن يتعلّما الغُفران؟

وهل كان يُمكن لهُما أن يتحرّرا من الشعور بمرارة البغض الذي كان يُعذّبهما؟ يحاول المؤلف يوهان كريستوف آرنولد في كتابه "لماذا نغفر؟" أن يُجيب عن بعض من هذه الأسئلة. ويمتلئ الكتابُ بقصصِ أُناس وجدوا القُوّة للغُفران لأولئك الذين أساءوا إليهم على الرُغم من الظروف الصعبة. وعندما غفروا فعلا، حصلوا على سلام الروح. إنهّم رجال ونساء عاديين مثل "جوردون ويلسون" الذي قُتلت ابنته بسبب قُنبلة من الجيش الايرلندي السري IRA في مدينة أينيسكيلين، و "فان تاي كيم فَك" وهي طفلة مُحترقة وعارية في سنّ التاسعة، وسط الخراب الذي تسبّبت فيه حرب فيتنام. ويحوي الكتاب أيضاً قصصا للغُفران من مجتمعات كنيستنا التي تعيش حياة مشتركة – مجتمعات برودرهوف المسيحية Bruderhof – مثل: أزواج يُعانون من الشجار المرير، أو ارتكبوا خطيّة الزنا، أو كانوا ضحايا لإساءة المعاملة في مرحلة الطفولة.

ويروي المؤلف آرنولد كُلّ تلك القصص بمُنتهى العطف والحنان وبدون إدانة. وهي على أيّ حال، قصص مُؤثّرة ولا يمُكن لأيّ شخص أن يقرأها دون

أن يتغيّر، لأنهّا تحثّنا على سبر أغوار جوانب طبيعتنا التي قد تُهدّد بدمارنا إن لم نُراجعها. لكنها أيضاً تُقدّم لنا الوسيلة الناجحة للخروج من لعنة مرارة الحقد والكراهية. ويُقدّم هذا الكتاب رسالة هامّة لجميعنا من الذين يجدون صعوبة في أن يغفروا للآخرين أو لأنفسنا، كما هو الحال مع كثيرين.

لكن لا تعتمد على كلماتي، فعليك أن تقرأ الكتاب بنفسك...

ستيف تشاك Steve Chalke
قسيس بريطاني وكاتب وناشط اجتماعي
لندن 1997

تمهيد

هل يمكنُ الغُفران لمثل هذا الرجل؟

يا له من قانون صعب، ذلك الذي يقول أنّنا لا يمكن أن نشفى من جروحنا النفسية العميقة ما لم نغفر.

قول من
آلان باتون Alan Paton
كاتب من جنوب أفريقيا وناشط مناهض للفصل العنصري

في صباح أحد الأيام في سبتمبر 1995، وبينما كُنت جالساً احتسي القهوة وأقرأ الصُحف المحليّة، ارتعبت حين قرأت نبأ في الجريدة يخبرنا باختطاف فتاة عُمرها سبع سنوات في وضح النهار، ولقد تابعت القصة عن كثب طوال الأيّام التي تلت.

لقد تم العثور على تلك الفتاة في خلال أسبوع من اختطافها، مُلقاة في منطقة من الغابات على بُعد بضعة أمتار من سجن المدينة، وقد تعرّضت للاغتصاب والضرب حتّى الموت، والأسوأ من ذلك هو أنّ الرجل الذي اعترف بارتكابه للجريمة، اتّضح أنّه كان من معارِف الطفلة، أيّ أنّه كان شخصا يمُكنها أن تثق به!

أما ردّ فعل الجمهور فكان من المُمكن التنبُّؤ به طبعا: هذا الرجل يستحقُّ الموت، ويجب أن يُحكم عليه بأقصى عقوبة. وعلى الرُغم من أنّ المدعي العام كان قد وعد بتقليل العقوبة لمدة أقصاها عشرين عاماً في مُقابل تبادُل المعلومات التي أدّت إلى الوصول لجُثّة الطفلة، إلاّ أنّه عاد وعدل عن وعده بعد عدّة أيام قائلاً إنّه تعاهد مع الشيطان حتّى يجد الطفلة، وإنّه يأمل أن يصبح أوّل نائب عامّ في تاريخ نيويورك يقوم بإرسال قاتلا إلى غُرفة الإعدام. غير أن سُكّان المدينة اقترحوا بحسب ما جاء في الصُحُف أن تطلق السلطات سراح هذا المُجرم المُغتصب حتّى "يتولُّوا هُم أمره".

وعلى الرغم من أن تلك المشاعر الغاضبة مفهومة، إلاّ أنّني تساءلت: هل ستأتي هذه المشاعر بالعزاء لأسرة الضحيّة المكلومة؟! وقد شعرت تماماً بما يجب أن يكون عليه رد فعلي كراعٍ كنسي، ورتّبت مُمثّلين من كنيستي للمُشاركة في الجنازة، وأرسلت الزهور لوالديّ الطفلة، وحاولت جاهداً زيارة الأسرة لكنيّ لم أتمكّن من ذلك، إلاّ أنّ قلبي كان ما يزال حزينا. وجاءني إحساس أنه يحب عليّ زيارة القاتل، وذلك لكي أجعله يتواجه مع أفعاله وأُساعده ليتوب عما كان قد ارتكبه، (فقد كان في نظري حتّى تلك اللحظة وحشا لا أعرف شكله).

أعلم أنّ البعض سينظرون باستنكار لتلك الزيارة إن لم يسيئوا فهمها كُليّا، لكني كُنت مقتنعاً أن هذا هو واجبي. وهكذا وجدت نفسي بعد عدّة أشهر جالساً بمُفردي في سجن المدينة وجهاً لوجه مع ذلك القاتل، وقد صُعِقتُ من الأثر الذي ترَكته تلك الساعات التي قضيتها معه عليّ وتركتْ في داخلي مجموعة من الأسئلة من دون إجابات، وهي تلك الأسئلة التي قادتني إلى كتابة هذا الكتاب، لماذا يجب عليّ أو على أيّ شخص آخر أن يغفر لهذا الرجل؟ وما الذي سيُغيِّره الغفران؟ وهل يمُكنني أن أغفر له إن لم يُبدِ هو من جهته أيّ شعور بالندم؟ وإن أبدى شعورا بالندم، فهل يكونُ من حقّي أنا أن أغفر له (مع أنّه لم يُؤذِني أنا شخصيّاً بطريقة مُباشرة)؟!

وبعد مُضيّ أقلّ من ثلاثة شهور على زيارتي للقاتل، واجه القاتل أخيراً أسرة الضحية، وقد كانت قاعة المحكمة تعجُّ بالحاضرين، ويمُكنُك أن تشعر

بمشاعر العداوة بمُجرّد دخولك إليها. كانت العقوبة هي السجن مدى الحياة التي تبعها القاضي بعبارة وجّهها للمُتّهم قائلا له: "أرجو أن يكون الجحيم الذي تواجهه هّنا الآن في السجن مُجرّد بداية للجحيم الذي ستُواجهه في الأبديّة!"

وسُمح أخيراً للمُتّهم أن يتكلّم بكلمات قليلة، فقال بصوت مُرتفع لوالديّ الطفلة إنّه آسف فعلاً على الألم الذي تسبّب فيه لهما وإنّه يُصلّي يوميّاً طالبا الغُفران، وعندما انتشر الهمس الغاضب بين الجالسين، سألتُ نفسي أصعب سؤال: "هل يمُكن أن يُغفر لمثل هذا الرجل؟"

يوهان كريستوف آرنولد Johann Christoph Arnold
مؤلف الكتاب وراعٍ كنسي في مجتمعات
برودرهوف المسيحية Bruderhof
وصاحب برنامج كسر الدائرة Breaking the Cycle
لترويج الغفران في المدارس وبين البلدان

الفصل الأول

سرطان النقمة والبغض

من يختار الانتقام يجب عليه أن يحفُر قبرين.

مثل صيني

إنَّ الغُفران هو الطريق للسلام والسعادة، وهو السرُّ الذي إن لم نسعَ لاكتشافه لظلّ خفيّاً عنّا. فالهدف من هذا الكتاب هو ليس أن يكون بمثابة مُرشد عمليّ للغُفران، لأنّه من المُستحيل أن تُخبر شخصا كيف يجب أن يغفر، لكني آمل أن يُساعد هذا الكتاب في توضيح السبب وراء الحاجة إلى الغُفران.

إنّ الغُفران أمرٌ ممُكن، وهذا هو ما تُظهره قصص هذا الكتاب، حيثُ تُعلّم الناس أن يغفروا حتّى في أصعب الظروف. وأنا أتمنّى أن أُساعدك للوصول إلى الباب الذي يقودك إلى طريق الغُفران بسردي لتلك القصص، وبمُجرّد أن تصل إلى الباب، فستكون أنت الشخص الوحيد الذي يكون بمقدوره أن يفتحه.

ما معنى الغُفران؟ قال سي. أس. لويس C. S. Lewis أنّه يتعدّى حدود العدل الإنسانيّ، إذ أنّه يصفح عن تلك الأمور التي لا يمُكن الصفح عنها أبداً. فهو إذن أكبر من مجرد اِلتماس العفو، فعندما نلتمس نحنُ العفو من شخص ما، فإنّنا ننحي جانباً الأخطاء التي ارتكبها ولا نُعاقبهُ عليها،

لكننا عندما نغفر، فنحن لا نتسامح في الخطأ أو الفعل المُتعَّمد للشر فحسب بل نعلم أيضا جيّداً أن ذلك الشخص هو المسئول عن الخطأ، ونسعى إلى إعادة تأهيله واستعادته مرة أخرى. وقد لا يكون غُفراننا مقبولا دائماً، لكن بمُجرّد أن نبادر بالغُفران فستصبح نفوسنا طاهرة من الشعور بالكراهية. رُبمّا نظل مجروحين، لكننّا على الأقلِّ لن نستخدم الألم الذي نشعر به لإحداث مزيد من الألم للآخرين.

فنحن عندما نستعيد مرّة أُخرى تلك الذكريات السلبيّة الخاصّة بإساءة آخرين في حقنِّا، فإن أمرا كهذا سيستفحل ليصير ظنوناً سيئة، ولا يهمّ ما إذا كان سبب هذا الظنّ صحيحاً أم وهماً، إذ أن تأثير كلاهُما واحد. فبمُجرّد أن نصل لتلك المرحلة، سنجد أنّ الظنّ قد استهلك قُوانا حتّى ننفجر ونُفسد كلّ شيء من حولنا.

جميعنا يعرف أناس يشعرون بالبغض، فمثل هؤلاء لديهم ذاكرة مُدهشة لأدقّ التفاصيل، وهُم يغرقون في فخ الشعور بالشفقة على الذات وفخ الكراهية. كما أنّهُم يسجلون كُلّ ظُلم وقع عليهم، ويكونون على استعداد دوما لأن يُظهروا للآخرين إلى أيّ مدى هُم متألّمُون، وهُم قد يبدون هادئين من الخارج، لكنهم يكونون في واقع الأمر مملوئين بالكراهية من الداخل.

وعادة ما يُدافع هؤلاء الناس عن شعورهم بالسخط والنقمة باستمرار قائلين إنّهُم قد تألّموا وعانوا كثيراً، وأمرا كهذا - بحدّ ذاته - كفيل لأن يكون ذريعة تعفيهم عن مسامحة غيرهم. لكنّ الحقيقة هي أنّ هؤلاء الناس يحتاجون إلى الغُفران أكثر من غيرهم، فقلوبُهُم في بعض الأحيان تمتلئ بالضغينة للدرجة التي تجعلهُم يفقدون القُدرة على المحبّة!

منذ ما يقرب من عشرين سنة تحدثت وأبي لوقت طويل مع امرأة من هذا النوع مُحاولين مُساعدتها، فقد مات زوجها لكنها كانت قاسية وبلا مشاعر مثل الصخرة، وعاشت حياة بلا لوم في نظر العالم، إذ كانت شديدة الترتيب والتدقيق وتعمل بجد، وأمينة ومقتدرة ويُعتمد عليها، لكنها كانت لا تستطيع أن تُحب. وبعد شهور من الصراع، اتّضح السبب وراء شعورها بفتور القلب، إذ أنّها لم تكن قادرة على الغُفران، ولم يكُن بإمكانها الإشارة إلى ألم مُعيّن

بعينه بحياتها، لكنها كانت مُنحنيّة تحت ثقل الآلاف من الظنون الصغيرة مُجتمعة معاً.

إنّ مرارة الكراهية هي أكثر من مُجرّد نظرة سلبيّة للحياة. فهي هدّامة وتهدم الشخص بحد ذاته أيضاً. فعندما تحتفظ أنت عمداً بالضغينة تجاه شخص آخر، فسيكون لهذا تأثير مُدمّر على نفسك. إذ أنّ أمرا كهذا سيفتح الباب للشر، وسيترُكنا مُعرّضين لأفكار الكراهية والانتقام، بل ولأفكار القتل. وبهذا تتضرر النفس ويتضرر الجسد أيضاً. ونحن نعلم أن الشدّ النفسي يمُكن أن يتسبّب في حدوث قُرحة أو آلام الصداع، لكننا عادة ما نخفق في رؤية العلاقة بين مرارة الاستياء والأرق على سبيل المثال. فقد أظهرت الأبحاث الطبيّة علاقة وثيقة بين الغضب الذي تكون مشكلته غير محلولة، وبين النوبات القلبية: فيبدو أن الذين يحبسون استيائهم ومرارتهم يكونون أكثر عرضة للإصابة بالأمراض من أولئك الذين يتمكنون من تهدئتها عن طريق التنفيس عن مشاعرهم.

"برندا Brenda" امرأة شابّة طُلب مني مُساعدتها قبل مدة قصيرة، لقد كانت قد تعرضت للاعتداء الجنسيّ من عمّها القسيس. وعلى الرُغم من أنّها ومن غير شك كانت ضحيّة بريئة لذلك الرجل الفاسق والرهيب، إلاّ أن شعورها بالبؤس والكآبة كان قد صار جُزءا من تكوينها النفسيّ، فلم ترغب بل لم تقدر على تجميع قواها النفسية لتغفر.

وصرخت "برندا" إليّ يائسة بعدما قضت سنوات طويلة في الخوف من الفضيحة وفي إدمان الكحوليّات التي كان يمدّها بها عمّها – معذِّبها - كلّ يوم كهدايا. اجتازت "برندا" مشوارا طويلا في الحصول على استشارات من الأطباء النفسيّين، وكان لديها كلّ رفاهية ماديّة يمكن أن ترغب فيها. وكانت تشغل وظيفة مرموقة ولديها شبكة من الأصدقاء الذين قدموا لها الدعم، وقد تمَّ القيام بكل ما هو مستطاع لمساعدتها لاستعادة وضعها الطبيعي، لكن بدون جدوى. لكن، وبالرُغم من هذا، كانت مشاعرها تتأرجح بصورة كبيرة ما بين الضحك المُفرط والبُكاء الذي لا يمُكن إيقافه. وكانت تنغمس في التهام الطعام

في أحد الأيام، ثمّ تضرب عنه في اليوم التالي. وكانت تشرب زجاجة وراء الأخرى من المشروبات الكحوليّة، مُحاولة بذلك أن تنسى مُشكلتها.

رُبمّا كانت "برندا" واحدة من أصعب الناس الذين سعيتُ لمُساعدتهم. كُنتُ مُتردّداً في التحميل عليها بأيّ شعور بالذنب، لكن بدا واضحاً لي أنّها هي وحدها التي بِيدِها أن تبادر في عملية الشفاء. فما لم تتعلّم الغُفران للشخص الذي اعتدى عليها، فإنّها ستظلُّ تشعر بأنها ضحيّته. لكن للأسف كانت كل مُحاولاتنا معها فاشلة. فازداد شعورها أكثر وأكثر باليأس بسبب الإحتقان النفسي والإحساس بالغضب والحيرة، وأخيراً حاولت أن تخنق نفسها فتم نقلها إلى المستشفى.

إنّ الجراح النفسية التي يُخلّفها الاعتداء الجنسيّ ربما تستغرق سنوات لتشفى. وعادة ما تترك مثل هذه الجراح آثارا تستمرُّ لمدة طويلة. لكن يجب ألا يؤدّي الأمر إلى الشعور بالعذاب مدى الحياة أو إلى الانتحار. وفي كُلّ الحالات التي تتشابه مع حالة "برندا" وجدتُ الضحايا يحصلون على تحرّر وحياة جديدة عندما يغفرون للمُغتصب، ويغفرون للذين سمحوا باستمرار الاغتصاب أو فشلوا في رؤية ما كان يحدث في ذلك الوقت، ولم يتمكّنوا من إيقافه.

لا تعني المغفرة بالضرورة النسيان أو التغاضي عن الأمر. ولا يتوقّف الأمر هُنا بالتأكيد على شرط الالتقاء وجهاً لوجه مع المعتدي – حتى أنه لا يُنصح به في حالة الاغتصاب. لكنه يعني بالتأكيد أن تتّخذ قراراً طوعياً بالتوقُّف عن الكراهية، لأنّ الكراهية لا تساعد بشيء ولن تقودُك إلى شيء مفيد، فهي تنتشر في الشخص مثل السرطان حتى تُدمّره بالكامل.

"آن كولمان Anne Coleman" وهي أمٌّ من ولاية ديلاوير Delaware الأمريكية، تقابلت معها قبل عدة شهور وقد أخبرتني بما حدث لابنها "دانيال" لأنّه لم يستطع أن يغفر:

عندما قُتِلتْ ابنتي "فرانسِز" في عام 1985 أصبحت يائسة جداً. ففي صباح أحد الأيام تلقّيتُ مُكالمة تليفونية من ابنة أختي في لوس أنجلوس تقول: "فرانسِز ماتت، فقد أُطلق عليها الرصاص"

ولا يمُكنني أن أتذكّر بالضبط ماذا فعلتُ، لكني فعلاً صرخت. وخطّطت للذهاب إلى كاليفورنيا في الحال، وفي الطائرة فكرّت فعلاً أنّه بإمكاني أن أقتل شخصا ما، فلو كان معي سلاح ورأيتُ الشخص الذي أصابها، لكنتُ فعلتُ ذلك حقّا.

وبمرور الوقت هبطت الطائرة وكُنت قلقة على الطريقة التي سأُقابل بها ابني "دانيال" الذي ركب الطائرة من ولاية هاواي، وكان "دانيال" ضابطاً في الجيش ومُدرّباً على القتل.

وعندما وصلنا إلى قسم الشرطة في صباح اليوم التالي، كان الشيء الوحيد الذي أخبرونا به هو مجرد أن ابنتنا ماتت، وأن أيّ شيء آخر ليس من اختصاصنا. وللأسف بقى الحال هكذا طوال الأيام التي قضيناها في لوس أنجلوس. وأخبرني ضابط شرطة المباحث أنهّ إن لم يتم القبض على الجاني في خلال أربعة أيّام، فلا يجب أن أتوقّع أنهُم سيقبضون عليه لاحقا! ثمّ استطرد: "فنحنُ لدينا الكثير من جرائم القتل في هذه الضاحية من المدينة، ولا نُعير جريمة القتل سوى أربعة أيّام فقط!"

أغضب ذلك الكلام ابني "دانيال" للغاية. وعندما اكتشف أن قسم الشرطة غير مُهتمّ فعلاً بالعثور على قاتل أخته، أراد أن يشترى رشاشة من نوع "عوزي Uzi" ويحصد الناس حصداً.

ولم ينبهنا أحد بِما سنراه عندما ذهبنا

لنأخُذ سيّارتها. فقد نزفت "فرانسِز" حتّى الموت في سيارتها، إذ اخترقت الرُصاصات الشُريان الأورطي وقلبها ورئتيها، وقد اختنقت بدمها. وماتت في وقت مُبكّر من صباح يوم الأحد. وأخذنا سيّارتها في وقت مُتأخّر من مساء يوم الثلاثاء. وكانت السيارة تبعث رائحة نتِنة. ولم تبرح تلك الرائحة ذهن "دانيال" الذي أراد الانتقام بأبشع صُورة ممُكنة. فقد أراد فعلاً أن يجد مَن يساعده بأية طريقة كانت – كنوع من العدالة على مقتل أخته.

وطوال السنتين والنصف التاليتين، رأيتُ "دانيال" تسوء حالته بسرعة، إلى أن وقفتُ يوماً إلى جوار مقبرة أخته أراقبهم وهم يُنزّلونه إلى الأرض ليُدفن هو أيضاً، فقد أخذ بالثأر أخيراً – أخذه من نفسه. ورأيتُ ما تفعله الكراهية، إذ أنّها تُدمّر ذهن الإنسان وجسدُهُ!

الفصل الثاني

التغلُّب على الكراهية بالمحبّة

يقول التاريخ: لا تترجى شيئا في القبر
لكن وأنت حيٌّ الآن،
ستعلو موجةُ العدالة التي طال انتظارها،
وعندئذ يرتبطُ الواقعُ بالأمل

لذا ارجُ تغيُّراً كبيراً في البحر
بعيداً عن الانتقام
وآمن أنّ هُناك شاطئ أبعد
يمُكن الوصول إليه من هنا
فآمن بالمُعجزات
وينابيع الشفاء

مقطع مترجم من قصيدة للشاعر
شيموس هيني Seamus Heaney
وهو بريطاني من ايرلندا الشمالية
حائز على جائزة نوبل في الأدب لسنة 1995

أَمْسَكَ "جوردون ويلسون Gordon Wilson" بيد ابنته عندما اِنحصرا تحت أكوام من الأنقاض. كان ذلك في عام 1987 عندما كان وابنته "ماري" يحضران مراسيم لذكرى معينة في مدينة أينسكيلين في إيرلندا الشمالية. وكانت الأجواء هادئة جداً أثناء المراسيم. وهُناك انفجرت قُنبلة إرهابيّة. وفي نهاية اليوم لقت "ماري" وتسع مدنيين آخرين مصرعهم ونُقل ثلاث وستوُّن آخرون إلى

المستشفى لإصابتهم بجراح.

والغريب أن "جوردون" رفض الانتقام قائلاً إنّ الكلمات الغاضبة لا يمُكن أن تُعيد له ابنته، ولا أن تأتي بالسلام إلى بلده. وبعد ساعات قليلة من الانفجار تحدّث مع مراسل الـ بي. بي. سي قائلاً:

> لقد فقدتُّ ابنتي، وطبعاً سنفتقدها. لكنني لست أحمل ضغينة ولا حقدا في قلبي، فهذا لن يُعيدها لي مرّة أُخرى... ولا تسألوني من فضلكم عن السبب... لأنّه ليست لديّ إجابة. لكنّي أعلم أنّه لابُدّ وأنّ هنُاك قصدا من وراء موتها. ولو لم أُفكّر بهذه الطريقة لانتحرتُ بالتأكيد. إذ أنّ موتها جُزءا من خطّة أعظم... وسنتقابلُ معاً مرّة أخرى.

وقد قال "جوردون" لاحقاً إنّ كلامه ليس عبارة عن إجابة لاهوتية عن موت ابنته. فهو مجرد عبّر عما كان يخالج صميم قلبه. وبعد مُضيّ أيّام وشهور على الانفجار، صارع لكي يحيا بحسب هذا الكلام. ولم يكُن أمرا كهذا سهلاً، لكن كان هذا الكلام بمثابة شيء يتعلّق به، شيء ليجعله حيّاً في الساعات الحالكة.

كان يعلمُ أن الإرهابيّين الذين قضوا على حياة ابنته لم يشعُرُوا بالندم، وقد أراد أن يحصُلُوا على العقاب ويُودعوا في السجن. وقد أساء كثيرون فهمه لأنّه رفض أن يطلُب الانتقام لحياة ابنته. فقد قال:

> هؤلاء المسئولون عن ارتكاب هذا الفعل سيُواجهون دينونة الله، التي هي خارج نطاق مغفرتي لهم... وقد يكون خطأ من جانبي أن أُعطي انطباعاً أن هؤلاء المُسلّحون ومن ضربوا تلك القنبلة يجب أن يُطلق سراحُهُم ليسيروا أحراراً في الشوارع. لكن... سواء تمّت محُاكمتُهُم هُنا على الأرض بقانون المحاكم أو لم تتم... فإنّي سأبذُلُ قصارى جهدي كبشر أن أُظهر لهم الغُفران... وصاحب القرار الأخير سيكون الله.

لقد ساهم غُفران "جوردون" للقتلى مساهمة إيجابية وجعله يتأقّلم مع وفاة ابنته المفاجئ وآثارها التي امتدت إلى أمور أبعد منهُ كبشر. فعلى الأقلِّ، ولو

وقتيّاً، كسرت كلماته دوامة القتل والانتقام: فقد أحسَّ قادةُ المليشيات البروتُستانتيّة بالذنب لشجاعة "جوردون" من أنه لم يطالب بالانتقام.

الحقيقة هي أنّنا حتّى لو أدركنا حاجتنا إلى الغُفران، فإنّنا في بعض الأحيان ننغوي ونَدّعي أنه ليس بإمكاننا أن نغفر. فنبرر موقفنا أن الأمر صعب جداً، وموجع جداً؛ وقد نظن أنّ القُدرة على الغُفران يتمتّع بها القديسون فقط لا نحن. وقد نعتقد إما أننّا انجرحنا زيادة، أو لم يتمّ سماع جانبنا من القصة، أو لم يقدر أحد أن يفهم ما مررنا به.

إن قصة "ستيفن ماكدونالد Steven McDonald" قد تأثّر بها كثير من الأمريكيين لكن بدا أنّ قليلين فقط هُم الذين فهموا أنّ غُفرانه لم يكن عمل بطولي لقوّة إرادة خارقة الطبيعة. كان "ستيفن" ضابطاً في البوليس في مدينة نيويورك حين تمَّ أطلاق الرصاص عليه، ممّا أصابه بالشلل من الرقبة إلى أسفل في عام 1986 أثناء استجوابه لثلاثة من الشباب في المتنزه المركزي للمدينة Central Park. ولم يكُن قد مضى على زواجه عام واحد آنذاك، وكانت زوجته حاملاً في الشهر الثاني.

كان "شافود جونس Shavod Jones"، وهو الشخص الذي هاجم "ستيفن"، يسكن في أحد مشاريع الإسكان الفقيرة في حي هارلم في مدينة نيويورك، في حين كان "ستيفن" يعيش في مُقاطعة ناساو الغنيّة التي تقطنها غالبية بيضاء. كان من المُمكن أن تنتهي المُقابلة القصيرة بين الاثنين بالسجن لأحدهما وبالشعور بالنقمة طوال الحياة للآخر. لكن قبل أن يتمّ إطلاق سراح "شافود" كان "ستيفن" قد بدأ في مُراسلته محُاولاً أن يخلق سلاما في حياة ذلك الشاب وأيضا معنى. فكتب قائلا:

لم يبرح من ذهني السؤال: لماذا أُطلق عليّ الرصاص؟ وأنا مُضطجع في الطابق السادس من الجناح الجنوبي للمستشفى، أنظر إلى السقف مُتحيراً، لكني وجدت أنّه لا يُمكنني أن أكرهه، فقد أتت به الظروف إلى ذلك المتنزه في تلك الظهيرة، ومعه مُسدساً يُخبئه في سرواله.

فلم أكن أنا سوى شارة شرطي لذلك الصبي، أو زيّ يمُثّل الحكومة، فقد كُنت في نظره النظام الذي جعل الملاّك يُطالبون بإيجار للشُقق الحقيرة في المباني المُتهالكة؛ وقد كُنتُ أُمثّل في نظره الجهة المسئولة في المدينة التي تتولى أمر جيرانها من الأحياء السكنية الفقيرة وتطرُدُ سُكّانها بحجة تحسين المستوى لكن بغضّ النظر عمّا إذا كانوا أُناسا مُلتزمين بالقانون أو مُجرمين، وقد كنتُ أنا الضابط الايرلنديّ الذي ظهر في نزاع محليّ ورحل دُون أن يفعل شيئا لأنّه لم يكُن هناك خرق للقانون.

وبالنسبة لـ"شافود جونس" كنتُ أنا كبش الفداء، والعدوُّ. فمن جهته لم يرني كإنسان، أو كشخص له أحبائه، أو كزوج له زوجة أو كأبّ في القريب العاجل إن شاء الله. فقد تربّى على نظرة مجتمعه لرجال الشرطة الذين يتّسمون بالعُنصرية والعُنف، لذلك كان عليه أن يتسلّح ضدّهم. كلا، لا يمكنني أن ألوم "جونس". فقد كان المجتمع – الذي يتألف من أسرته والهيئات الاجتماعيّة المسئولة عنه والناس الذين جعلوا من المُستحيل أن يحيا أبواه معاً تحت سقف واحد - كان المجتمع هو الذي أخفق معه بمدة طويلة قبل أن يتقابل "شافود جونس" مع "ستيفن ماكدونالد" في متنزه المدينة...

في بعض الأيام حين أشعر أنني لستُ على ما يُرام، أشعر بالغضب الشديد، لكني أدركت أنّ الغضب مشاعر بلا فائدة. فأحيانا أشعر بالغضب تجاه ذلك المُراهق الذي أطلق عليّ النيران، لكني كثيراً ما أشعر بالأسى نحوه. ورجائي الوحيد هو أن يتمكّن من تغيير حياته لكي يُساعد الناس لا لكي يؤذيهم. فأنا أغفر له، وآمل أن يجد السلام والهدف لحياته.

لم يُجب "شافود" على خطابات "ستيفن" في البداية، وعندما أجاب عليها فشلت المُبادرة لأنّ "ستيفن" رفض طلبه لمساعدته في الحصول على إطلاق سراح مشروط. ثمّ في أواخر عام 1995 بعد مُضيّ ثلاثة أيّام فقط من إطلاق سراحه من السجن قُتِل "شافود" في حادث اصطدام دراجة نارية في شارع ماديسون.

قبل عدّة أشهر عندما زرت "ستيفن" في منزله بجزيرة لونغ آيلند Long Island في نيويورك، ذُهِلتُ على سلوكه الرقيق وعلى عيناه اللامعتان المفعمتان بالحيوية وفي الوقت نفسه ذُهِلتُ على مدى عجزه الكبير. فالحياة على كُرسيّ مُتحرّك من الصعب جدّاً أن يقبلها حتّى العجوز، فما بالك أن يتخلّى إنسان عن الحياة الطبيعيّة النشيطة في سنّ التاسعة والعشرين فهو أمر محُبط من دون شكّ. وفوق هذا كلّه فهو لديه قصبة هوائية اصطناعيّة للتنفُّس بواسطتها، وهو غير قادر حتى على احتضان أبنه ذي العشر سنوات، فهذا هو "ستيفن ماكدونالد" لكني مع كل ذلك لم أشعُر بأيّ غضب أو بأي نقمة في داخله.

لقد فتح قلبه لي وحكى بهدوء لكن بحزم، وشرح لي كيف أن التعرُّض لتلك الطلقة، دفعه إلى أن يُعيد تقييم حياته برُمتّها:

> في البداية كان الغفران سبيلاً لي يمكّنني من المضيّ قدما في الحياة، وأسلوباً لنسيان هذا الحادث الفظيع. لكن فيما بعد أدركت أنّي كُنت أحيا حياة أنانيّة، وأنني أنا نفسي كُنت بحاجة إلى الغُفران. بهذه البساطة ومن غير لفٍ ودوران.

ووجد "ستيفن" هدفا ومعنى لحياته عندما بدأ يعلّم عن الغُفران، فهو يتحدّث باستمرار في المدارس الابتدائية والثانوية وفي حفلات التخرُّج. ويرى أن هذا هو العمل الذي أعطاه إياه الله ليُتمّمه.

وبعد مُضي أحد عشر عاماً من إطلاق الرصاص على "ستيفن"، ما زالت زوجته "باتي Patti" وفيّة له وتقف إلى جواره. وهمُا يصارعان يوميّاً مع حقيقة

عجزه وآثارها على زواجهما. وكثيراً ما يُقاوم "ستيفن" مشاعر الكآبة وأفكار الانتحار. لكن عندما سألتُه إن كان الغُفران نفسه صراعاً، قال لا، إنّه نعمة.

لا يمُكن أن يكون الغُفران سهلاً عندما يُجرح الإنسان بشدّة. لكن حتّى في الحزن الشديد فإننّا نُواجه خيارا: إمّا أن نحُب أو أن نكره، إما أن نغفر أو أن ندين، إما أن نسعى للمُصالحة أو للانتقام. رُبمّا يكونُ "ستيفن" قد استسلم للبغض والامتعاض، لكنه يُغيّر حياة الكثيرين حتّى هذا اليوم لأنّه اختار طريق السلام والمصالحة.

ومن أحد الأبطال الذين يعتز بهم "ستيفن" هو "مارتن لوثر كنج". ففي أثناء زيارتي له طلب من الممرّضة أن تأتي له بمجموعة من أقوال ذلك الزعيم بشأن حقوق المدنيين التي قرأ منها السطر المفضّل لديه الذي يقول: "إنّ الغُفران ليس تصرُّفا عرضيّا، لكنّه موقفا دائميا".

غفر "كريس كاريير Chris Carrier" لرجل قد يرغب معظمنا في موته. فعندما كان صبيّا في العاشرة من عمره في مدينة ميامي الأمريكية تعرّض للاختطاف والاعتداء عليه من أحد مُوظّفي والده السابقين، ثم تركه بعدها بين الحياة والموت في متنزه أيفركليدز Everglades الحكومي الكبير المساحة والمليء بالمستنقعات في ولاية فلوريدا، فكتب كريس قائلاً:

> لم يكُن يوم الجُمعة 20 ديسمبر 1974 يوماً عاديّاً. فقد كان آخر يوم في المدرسة قبل إجازة عيد الميلاد Christmas وعليه فقد خرجنا من المدرسة مُبكّراً وقبل الموعد المحُدّد.
>
> تركت أتوبيس المدرسة في الساعة 1.15 بعد الظهر وبدأت في السير مُتّجهاً إلى المنزل. وبدا أن هُناك رجُلا عجوزا يسير باتجاهي على الرصيف وكأنه يعرفني. وكُنتُ على بعُد منزلين فقط من منزلي، فقدّم إليّ نفسه على أنّه أحد أصدقاء والدي. أخبرني أنّه يُعدّ حفلة لوالدي وطلب منّي مُساعدته في تزيين المكان.

وافقتُ وسرت معه تجاه الشارع مرّة أُخرى حتّى مركز الشباب حيث كان يترك سيارته (التي هي منزل في ذات الوقت). وبُمجرّد أن ركبت السيارة معه، وضعت مُتعلقاتي عنّي حتّى أُريح نفسي.

اختفت مدينة ميامي من أمامي بسرعة لأنّ الرجل كان يتّجه نحو الشمال. وأوقف السيارة في منطقة بعيدة عن المواصلات العامّة وعلى جانب الطريق، وادعى أنه قد فاتته الاستدارة. فأعطاني خريطة وطلب منيّ أن أبحث عن رقم مُعيّن، ثم ذهب الى مؤخرة السيارة مدّعياً أنه "سيجلب شيئا ما".

وفيما أنا مُنتظر وأدرس في الخريطة شعرت بلسعة في كتفي ثم أُخرى. فالتفتُّ ورائي فرأيته يحمل معول لكسر الجليد في يده. ثم سحبني من مقعدي ورماني على الأرض. فجلس بركبتيه عليّ وأخذ يطعنني في صدري عدّة مرّات. فرجوته أن يتوقّف عن هذا ووعدته أنه لو تركني وشأني فإنّي لن أُخبر أيّ شخص بما حدث.

وشعرت براحة لا توصف عندما قام من عليّ. وأخبرني أنه سيُلقي بي في مكان ما وبعدها سيُكلم أبي وسيعرُفه مكاني. وسمح لي أن أجلس في مؤخّرة السيارة وهو يقودها، لكني أدركت الحقيقة المؤلمة من أنّ هذا الموقف خارج نطاق سيطرتي. وعندما سألته لماذا يفعل هذا معي، قال لي: "إنّ أباك كان السبب في أن أخسر جُزءاً كبيرا من أموالي."

وبعدما قاد السيارة لما يقرُب من السّاعة أو أكثر، اتجّه إلى طريق جانبيّ تُرابيّ، وأخبرني أن هذا هو المكان الذي سيأتي إليّ أبي ليأخذني منه. وسرنا معاً بين الأحراش وجلست في المكان الذي أجبرني على الجلوس فيه. وآخر ما أتذكّر هو رؤيته وهو يمضي في طريقه ويتركني.

وبعد مُضيّ ستّة أيّام، وفي مساء يوم 26 ديسمبر وجد أحد صيادي الغزلان المحليين "كريس". وكان رأسه ينزف وعينيه سوداوين، فقد أُطلق عليه الرصاص في رأسه واخترقه. وبأعجوبة لم يُصب مُخّه بأذى، لكنه لا يتذكّر أنّ هُناك من أطلق عليه الرصاص.

في الشهُور التالية كان "كريس" يُصارع يوميّاً مع شعوره بعدم الأمان، لأنّه كان يعلم أنّ الشخص الذي اختطفه حُرُّ طليق. وكان عليه أن يتجاوب مع الآثار المُترتّبة على جُرحه، حيثُ أُصيب بالعمى في أحد عينيه، ممّا جعله غير قادر على الاشتراك في أيّة رياضة. وكان قلقاً بشأن مظهره وهذا شيء يشعر به أي مراهق.

كره "كريس" التحدُّث عمّا حدث له، وتذكّر كيف أن هذه "الأعجوبة" كان لها أن تتركه في وضع تعيس فعلاً. والغريب أنّه تغيّر عند سن الثالثة عشر. فقد بدأ يرى ذلك الكابوس الذي حدث معه بطريقة مختلفة. وأدرك أنّ جُرحه كان من المُمكن أن يكون أسوأ من هذا بكثير، فرُبمّا كان قد تعرّض بسببه للموت. وأدرك أيضا أنّه لا يُمكنه أن يظلُّ غاضباً للأبد. وقرّر أن ينسى هذا الحادث، وينسى كذلك وللأبد الرغبة في الانتقام والشفقة على الذّات.

وفي 3 سبتمبر 1996 تلقّى "كريس" مُكالمة تليفونيّة غيرّت حياته مرّة أُخرى. فقد اتّصل به مُحقّقٌ من قسم شرُطة مدينة كورال جابلِس ليُخبره أنّ هُناك رجُلا يُدعى "دافيد ماك أليستر" قد اعترف أنه اختطفه. فقد كان "دافيد" يعمل في السابق كمُمرّض مساعد لعم "كريس" العجوز، وقد طُرد من عمله بسبب إدمانه للخمر. فقام "كريس" بزيارة "دافيد" في اليوم التالي. يقول كريس:

> عندما زُرته في تلك الظهيرة شعرتُ بالشفقة عليه. فلم يعُد "دافيد ماك أليستر" هو نفس الشخص المرعب الذي اختطفني، لكنه أصبح رجُلا عجوزا في السابعة والسبعين من عُمره وكان وزنه أكثر بقليل من ستّين رطلا. وقد أصبح أعمى بسبب المياه الزرقاء، وقد تُلِف جسده بسبب الخمور والتدخين. ولم يعُد له أصدقاء أو عائلة. بالإجمال، كان رجُلا يُواجه الموت بندم شديد.
>
> وعندما بدأت أتحدّث مع "دافيد" كان قاسياً، فرُبّما أعتقد أنّني كنتُ ضابط شُرطة ثاني، فسأله أحد أصدقائي الذي رافقني بعض الأسئلة البسيطة لكي يقوده للاعتراف أنه اختطفني، قائلاً: "ألا ترغب في

أن تخبر ذلك الصبيّ الصغير أنّك ندمت على ما فعلته معه؟" فأجاب "دافيد" مؤكّداً: "أتمنّى لو كان هذا بإمكاني."

عندئذ قدّمتُ نفسي له، وعلى الرغم من أنّه لم يستطع رؤيتي، ألاّ أنّه أمسك بيدي وأخبرني أنه آسف على ما فعله معي. وبالمقابل عرضتُ عليه صداقتي وأخبرتُهُ أنني قد غفرت له.

يقول "كريس" إنّه لم يكن صعبا عليه أن يغفر، لكن وسائل الإعلام لم تفهم لماذا غفر له أو كيف حدث هذا. لقد أُعجبت وسائل الإعلام بقُدرته على الغُفران، لكنها لم تستطع أن تُدرك ما الذي دفعه لمثل هذا الغُفران. فوسائل الإعلام لا تدرك عادة معنى الغُفران، فيبدو أنّها تركّز على قصّة الاختطاف وتفاصيل التعذيب، أمّا "كريس" فيقول:

هُناك سبب قويٌّ للغُفران، فعندما يُخطئ الآخرون في حقّنا، يُمكننا أن نتجاوب مع هذا الأمر بطريقتين، إمّا أن نسعى للانتقام من الشخص الذي أخطأ في حقّنا، أو أن نغفر له. وإن اخترنا الانتقام، سيطر الغضب على حياتنا، لأنّ الثأر يُسلبنا حياتنا، إذ من الصعب أن نُرضي مشاعر الغضب التي في داخلنا وقد نصاب بالإدمان عليه، إلاّ أن الغُفران يسمح لنا بقلب صفحة جديدة والمضي قدما في الحياة.

وهناك سبب آخر يدفع الإنسان للغُفران، فالغُفران هو نعمة إلهية – أنه رحمة. إنه عطيّة حصلتُ عليها ويُمكنني أن أُقدّمها للآخرين. وفي كُلّ الحالات أشعر بالرضا التام.

وفي الأيّام التالية لهذا الاجتماع بدأ "كريس" في زيارة "دافيد" بصفة مُنتظمة مع زوجته وابنتيه. وقضى الرجلان ساعات طويلة معا في الحديث وذابت قسوة الرجل العجوز بالتدريج. وفي أحد الأُمسيات بعد ثلاثة أسابيع من تلك

الحادثة، وبعد أن أودع "كريس" صديقه المريض إلى الفراش لينام، مات "دافيد".

تُظهر لنا قصص "جوردون" و"كريس" و"ستيفين" التناقُض في السرِّ الذي نُطلق عليه "الغُفران". فيرى الكثيرون منّا أنّه من الصعب أن نتخلّى حتى عن الضغائن الصغيرة. لكن هؤلاء الرجال الثلاثة الذين عانوا أكثر بكثير من أسوأ كوابيسهم، استطاعوا أن يغفروا بسهولة عجيبة. ورُبّما لا يكون هذا بسبب طبيعتهم، لكنه يرجع إلى قُوّة أكبر منهُم. وفي النهاية استمدّ هؤلاء الرجال قُوّتهُم للغُفران من إيمانهم بالله، لا من بحثهم عن السلام فقط.

الفصل الثالث

إنهاء دوامة الحقد

إذا كانت المسألة مجرد مسألة وجود بعض الأشرار الذين يقترفون الأفعال الشريرة في مكان معين فسيكون من الضروري إذن عزلهم عنّا والقضاء عليهم. إلاّ أنّ الخط الفاصل ما بين الخير والشر يتغلغل داخل قلب كلّ إنسان منّا. فمَنْ مِنّا تراه راغب في القضاء على جزءٍ من قلبه؟

قول من
ألكسندر سولجنيتسين Aleksander Solzhenitsyn
أديب ومعارض روسي، كتب ضد معسكرات الاتحاد السوفيتي للعمل القسري
حائز على جائزة نوبل في الأدب سنة 1970

لقد تعلّمنا كأطفال الكلمات المألوفة في الصلاة الربانيةّ التي تُعزّي كثيرين منّا بصفة خاصة في الأوقات الصعبة أو أوقات الأزمات: "وَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كَمَا نَغْفِرُ نَحْنُ أَيْضاً لِلْمُذْنِبِينَ إِلَيْنَا." لكن ما مدى الجديّة التي نتعامل بها مع تلك الرسالة التي تحملها هذه الكلمات: أي بمعنى أن نحصل على القُوّة لنغفر، عندما نُدرك احتياجنا الشخصي لغُفران ذنوبنا؟ ولا يأتي لنا مثل هذا الإدراك بسهولة. فقد يبدو أنّه من الأسلم أن نتمسّك ببرّنا الذاتيّ وفضيلتنا البشرية!

أخبرنا يسوع المسيح بالقصّة التالية ليُوضّح لنا معنى هذه الكلمات في الصلاة الربانيّة:

أَرَادَ مَلِكاً أَنْ يُحَاسِبَ عَبِيدَهُ. فَلَمَّا ابْتَدَأَ فِي الْمُحَاسَبَةِ قُدِّمَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مَدْيُونٌ بِعَشْرَةِ آلاَفِ وَزْنَةٍ. وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُوفِي أَمَرَ سَيِّدُهُ أَنْ يُبَاعَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَأَوْلاَدُهُ وَكُلُّ مَا لَهُ وَيُوفَى الدَّيْنُ. فَخَرَّ الْعَبْدُ وَسَجَدَ لَهُ قَائِلاً: يَا سَيِّدُ تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيَكَ الْجَمِيعَ. فَتَحَنَّنَ سَيِّدُ ذَلِكَ الْعَبْدِ وَأَطْلَقَهُ وَتَرَكَ لَهُ الدَّيْنَ. وَلَمَّا خَرَجَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَجَدَ وَاحِداً مِنَ الْعَبِيدِ رُفَقَائِهِ كَانَ مَدْيُوناً لَهُ بِمِئَةِ دِينَارٍ فَأَمْسَكَهُ وَأَخَذَ بِعُنُقِهِ قَائِلاً: أَوْفِنِي مَا لِي عَلَيْكَ. فَخَرَّ الْعَبْدُ رَفِيقُهُ عَلَى قَدَمَيْهِ وَطَلَبَ إِلَيْهِ قَائِلاً: تَمَهَّلْ عَلَيَّ فَأُوفِيَكَ الْجَمِيعَ. فَلَمْ يُرِدْ بَلْ مَضَى وَأَلْقَاهُ فِي سِجْنٍ حَتَّى يُوفِيَ الدَّيْنَ. فَلَمَّا رَأَى الْعَبِيدُ رُفَقَاؤُهُ مَا كَانَ حَزِنُوا جِدّاً. وَأَتَوْا وَقَصُّوا عَلَى سَيِّدِهِمْ كُلَّ مَا جَرَى. فَدَعَاهُ حِينَئِذٍ سَيِّدُهُ وَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْعَبْدُ الشِّرِّيرُ كُلُّ ذَلِكَ الدَّيْنِ تَرَكْتُهُ لَكَ لأَنَّكَ طَلَبْتَ إِلَيَّ. أَفَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنَّكَ أَنْتَ أَيْضاً تَرْحَمُ الْعَبْدَ رَفِيقَكَ كَمَا رَحِمْتُكَ أَنَا؟.وَغَضِبَ سَيِّدُهُ وَسَلَّمَهُ إِلَى الْمُعَذِّبِينَ حَتَّى يُوفِيَ كُلَّ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِ (متى 18: 23-34).

من أقوى الدوافع للغُفران هو تجربتنا الشخصية عندما يُغفر لنا، وإدراكنا لحاجتنا إلى الغُفران عن الأخطاء التي ارتكبناها في حقّ الآخرين.

يُخبرنا "جيرَد Jared" أحد طلبة الجامعة وهو أمريكيٌّ من أصل أفريقيّ من ولاية بوسطن الأمريكية بقصّة صراعه مع الغُفران قائلا:

كُنت في السادسة من عُمري عندما اصطدمت مع حقيقة العُنصريّة. فقد دُفع بي من البيئة الآمنة في منزلي إلى العالم في المدرسة الابتدائيّة التي تقع على قارعة الشارع الذي أقطن فيه. ذهبت لتلك المدرسة لمدّة شهر قبل أن تُصدر المدينة قانونا يُحتّم عليّ الانتقال إلى مدرسة أُخرى في الجهة الثانية من المدينة. ولم يسعد أبوايّ بهذا القانون، فقد أرادا لي الذهاب إلى المدرسة التي أكون فيها معروفاً ومحبوباً. وكانا يمتلكان مزرعة في القرية، لهذا انتقلنا إليها...

كان والدي مُناضلاً في حركة الدفاع عن الحقوق المدنيّة للأفارقة الأمريكان، وعلّمنا أن نُحبّ الجميع ونحترمهم سواء كانوا بيضاً أو سُودا. لم أُدرك في ذلك الوقت الصراع العُنصريّ. وكُنتُ الطفل الوحيد الأسود في المدرسة، وكان من الواضح أن كثيرين من الأطفال الآخرين تعلّموا أن يكرهوا. فالأطفال يُمكن أن يكونوا قُساة فيما يتعلّق بالفروق التي يُلاحظونها بينهم وبين الآخرين. فيبدؤون بسُؤال بريء: لماذا لونُ بشرتك بُنيّ؟ وبعدها يضحكون ويسخرون مني لأنّهم يعلمون أنّ البشرة البُنيّة شيء مُختلف إلى حدّ ما، ففي مرحلة ما تعلّموا أنّ هذا اللون ليس "طبيعيّا".

لقد شعرت أنني لست في المكان السليم. وكأنّي سمكة تخرج من الماء، ولم يكن هؤلاء الأطفال يتعاملون معي بطريقة لطيفة. وأتذكّر بصفة خاصّة حادثة أثّرت فيّ للغاية. ففي أحد الأيام، عندما قدّمتُ صديقا أبيضا لي لصديق أبيض آخر في الأتوبيس، صارا هذان الصديقان منذ ذلك اليوم معاً وتركاني.

ثم عندما كنت في الصفّ السابع في المدينة، كان هُناك طفل واحد أبيض في فصلي يُدعى "شون" وهو الطفل الوحيد الأبيض في المدرسة كُلّها. فكُنّا نُعامله كالمنبوذ وكنّا نسخر منه ونلقبه بكلمات عنصرية غير لائقة ونعتدي عليه بالضرب. إذ نتخلّص من مشاعر الكراهية التي نحملها نحو البيض في "شون". وبالرغم من أنّه لم يفعل أيّ شيء لنا، إلاّ أنّنا كُناّ نشعر بالغضب الشديد تجاهه. فقد كان يُمثّل كلّ ما نعرفه عن البيض وتاريخهم لإذلال شعبنا، والقتل والإجرام وتجارة العبيد، فأخرجنا كلّ البغض والغضب على هذا الصبي.

والآن، أستطيع أن أرى أنّ ما فعلناه في "شون" كان خطأ. وقد كُنّا بهذا عُنصريّين، وهو الشيء الذي كرهناه في البيض. وما زلت حتّى هذا اليوم أطلب الغُفران عن الألم الذي تسببتُ فيه لـ "شون". وأطلب أيضاً الغُفران لهؤلاء الأطفال الذين لم تعرف قلوبهم كيف يُحبّونني عندما كنت الطفل الوحيد الأسود في وسطهم.

"هيلا إيرليتش Hela Ehrlích" وهي امرأة من أفراد مجتمعات برودرهوف المسيحية Bruderhof وهي من أصل يهوديّ، نشأت في ألمانيا النازية. ونجحت عائلتها في الهجرة قبل اندلاع الحرب العالميّة الثانية بوقت قليل، وبالتالي نجت من مُعتقلات الموت. لكنهم مروّا بالكثير من المتاعب. فقد توفّي والدها ولم يكن عمره سوى 42 عاماً وفقدت "هيلا" كلّ أجدادها من ناحيتي الأب والأم، بالإضافة إلى جميع أصدقاء الطفولة في الهولوكوست (محارق اليهود في ألمانيا).

وتحكي صراعها الطويل مع البغض والاستياء وعدم رغبتها المُستمرّة في الغُفران، حيث وخزها ضميرها في أحد الأيّام أثناء اجتماع ضم جميع أفراد مجتمعها المسيحي برودرهوف. فأسمعوها تقول ما أحسّت به إثناء ذلك الاجتماع:

> جلستُ مُرتعدة، وأثناء جلوسي تجلى الأمر لي أنني لو نظرت إلى قلبي لوجدت بذور الكراهية فيه أيضاً. وأدركت أنّ بذور الكراهية موجودة في كلّ إنسان. فأفكار الانتقام ومشاعر السخط وبرود القلب نحو الآخرين والغضب والحسد وحتى عدم الاكتراث بآلام الآخرين – هي بالحقيقة الجذور نفسها لتلك المجازر التي حدثت في ألمانيا النازيّة. وهنا أدركتُ أوّل مرّة، وأكثر من أيّ وقت مضى، حاجتي الماسّة إلى الغُفران وأخيراً شعرت بالتحرّر الكامل.

"يوسف بن اليعازر Josef Ben-Eliezer" وهو فرد آخر من أفراد كنيستنا "برودرهوف Bruderhof" وهو من أُسرة يهوديةّ، وقد وُلد في عام 1929 في فرانكفورت بألمانيا من أبوين يهوديين من أوربا الشرقية. وقد هاجر والداه من بولندا، مثلهمُا مثل آلاف آخرين، للهروب من الاضطهاد والفقر. إلا ّأنّهم لم يُنجوا من أيّ منهُما، لا من الاضطهاد

ولا من الفقر. فيقول يوسف:

تقابلتُ لأوّل مرةّ مع مُعادين للساميّة عندما كُنت في الثالثة من عُمري أثناء مُراقبتنا لرتل من شباب هتلر وهُم يمُرُّون من أمام نافذة منزلنا في الشارع الشرقي Ostendstrasse وهُم يُغنُّون أُغنية حتى أنا فهمت معناها في ذلك الوقت. كانت تقول: "عندما تسيل دماء اليهود من خناجرنا.....إلخ"، وما زلت أذكر الرُعب الذي كان يظهر على وجه والديَّ.

وسرعان ما قرّرت عائلتنا ترك البلد. وفي نهاية عام 1933 عُدنا ثانية إلى مدينة روزفادوف في بولندا المُطلة على نهر سان. وكان مُعظم سُكّانها من اليهود الذين يعملون كحرفيين، وخيّاطين، ونجّارين وتُجّار. وكان هناك فقرٌ شديدٌ لكن بالرُغم من هذا الفقر الشديد كُنّا نُعتبر من الطبقة الميسورة، وعشنا في روزفادوف طوال الستّة أعوام التي تلت.

وفي عام 1939 بدأت الحرب، وفي غضون أسابيع دخل الألمان إلى مدينتنا. واختبأ أبي وأخي الأكبر في العُليّة العليا، وكُنّا عندما يقرع أحد على الباب ويسأل عنهما نُخبره أنهُما ليسا بالمنزل.

وجاء الإعلان العام الرهيب أن كلّ اليهود عليهم أن يجتمعوا في الميدان الرئيسيّ بالمدينة. وأُعطيت لنا مُهلة ساعات قليلة فقط. فأخذنا ما استطعنا حمله – مجرد وضعناه في صُرّة لنتمكّن من حمله على ظهورنا. ومن الميدان أجبرنا جنود قوات الـ SS للسير على الأقدام باتجاه نهر سان، الذي كان يبعد عدة أميال عن القرية. وكان الرجالُ المُجنّدين يرتدون الزيّ العسكريّ ويركبون الدرّاجات البُخاريّة من على جانبيّ الطريق. ولن أنسى كيف توقّف أحدهُم وصرخ فينا لكي نُسرع، ثم توجّه ناحية والدي وضربه.

وعند ضفّة النهر، كان هُناك جنود آخرون بزيّهم الرسميّ ينتظروننا. فقاموا بتفتيشنا بحثاً عن الأشياء الثمينة من مال أو مُجوهرات أو ساعات. (ولم يجدوا المبلغ الذي أخفاه والدي في ملابس أُختي الصغيرة). ثم أمرونا أن نعبُر النهر إلى أرض ليس فيها إنسان. ولم يُخبرنا أحد بما يجب أن نفعله، لهذا وجدنا مأوى في قرية عبر النهر.

وبعد عدّة أيّام سمعنا فجأة أنّ هذه المنطقة سيحتلّها الألمان أيضاً. فانتابنا الذُعر واشترى والديّ بالأموال التي أخفوها ومتشاركين مع عائلتين أو ثلاثة حُصانا وعربة لكي تحمل الأطفال الصغار والأشياء القليلة التي حملناها على ظهورنا.

واتجهنا شرقاً إلى روسيا أملاً في الوصول إلى الحدود قبل حلول الظلام، لكننا وجدنا أنفُسنا في غابة كبيرة عندما حلّ الظلام. وهناك هاجمنا رجال مسلّحون وطلبوا أن نُعطيهم كلّ ما نملك. كانت لحظات مُرعبة لكن كان هناك بعض الرجال في مجموعتنا ممّن كانت لديهم الشجاعة لمُقاومتهم. وفي النهاية رحل الرجال آخذين درّاجة وأشياء أُخرى صغيرة.

قضت أسرة يوسف سنوات الحرب في سيبيريا. ونجح يوسف بأعجوبة في الهروب إلى فلسطين عام 1943، وبعد الحرب تقابل مع يهود نجوا من مُعسكرات الإبادة. فيقول يوسف:

لقد بدأت الدفعات الأولى من الأطفال الذين تمَّ تحريرهم من معسكري الإبادة Bergen-Belsen و Buchen-wald الألمانيين في الوصول إلى فلسطين في عام 1945. وارتعبتُ ممّا سمعته من هؤلاء الصبيان الذين بالرغم من أنّهُم لم يتجاوزوا سنّ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، إلاّ أنّهُم كانوا قد مرّوا بأحداث رهيبة. وكان مظهرهم يشبه العجزة. وشعرتُ بالاشمئزاز والإحباط.

صارعت مع موضوع الاحتلال البريطاني للبلد طوال الثلاث سنوات التالية. وامتلأت بالكراهية نحو البريطانيين وخاصّة بعدما بدأوا في وضع قيود على هجرة الناجين من الهولوكوست إلى فلسطين. وقُلنا إنّنا نحن اليهود لن نسير مرّة أُخرى مثل الغنم للذبح، على الأقل ليس بدون قتال ضارٍ. وشعرنا أنّنا نعيش في عالم من الوحوش، وأنّنا يجب أن نكون مثل الوحوش حتّى نستطيع أن نحيا في العالم.

وعندما انتهت الوصاية البريطانية على فلسطين، دارت حروب أكثر بين اليهود والعرب من أجل الأرض. والتحقت بالجيش لأنّي كُنت مُقتنعاً أنّه لا يمكن أن أسمح لنفسي بالاستمرار أن أُسحق بالأقدام...

وأثناء حملاتنا على رام الله واللد، أمرت كتيبتي الفلسطينيين أن يترُكوا بيوتهم خلال ساعات. ولم نسمح لهم أن يرحلوا بسلام لكننا سكبنا غضبنا عليهم. فضربناهم وعاملناهُم بقسوة. ولقي بعضهم حتفه. ولم تكن لدينا أوامر بفعل هذا، لكننا فعلنا هذا من تلقاء أنفسنا. فقد أطلقنا العنان لأدنى غرائزنا واحقرها.

وفجأة، لمعت أمام عينيّ طفولتي في وقت الحرب في بولندا. واستعدت في ذهني خبرتي كطفل في العاشرة من عُمره يُبعَد عن بلدته. والآن أمامي هؤلاء الناس - رجال ونساء وأطفال - يهربون بكلّ ما يمُكنهم أن يحملوه. والخوف في عيونهم، خوف أعرفه أنا جيّداً. شعرت بألمٍ عميق، لكنني كنت تحت الأوامر، واستمررت في البحث عن أشياء قيمّة. وعلمت أنّني لم أعُد ضحيّة، لكني الآن أملك القوة والنفوذ.

ترك يوسف الجيش لكنه ما زال غير سعيد. وترك اليهوديّة، وترك الدين برُمّته، وحاول أن يعطى معنى للعالم من خلال تفسير شروره بالمنطق. لكن لم ينجح الأمر معه. وفي نهاية المطاف جاء الى أحد مجتمعات برودرهوف المسيحية، فقال:

هنا اختبرت لأوّل مرة حقيقة الغُفران. وأسأل نفسي: "كيف لا يُمكنُني أن أغفر للآخرين على الرُغم من أنّني أنا نفسي بحاجة إلى الكثير من الغُفران مرة بعد أخرى؟" وفوق كل شيء، فإني كلي أمل أنه في يوم من الأيّام سيمتلئ الناس في كافة أنحاء العالم بالروح نفسه الذي خلصني.

كان لكلّ من "جيرَد" و"هيلا" و"يوسف" أسبابا مُقنعة لعدم الغُفران لأعدائهم. فمن وجهة النظر البشريّة كانوا أبرياء. إذ كانت الأعباء التي يحملونها نتيجة لكراهية الآخرين لهم وليس كراهيتّهم للآخرين. ولهذا كان لهُم كُلّ الحق في أن يشعروا بالمشاعر التي شعروا بها.

لا أحاول للحظة أن أقول إنّ الغُفران سهل خاصّة لهؤلاء الذين ذبحوا عائلتك وأصدقائك وجيرانك، لكن من خبرتي كراعٍ كنسي وكمُشير أن أقول إنّ هؤلاء الذين لا يستطيعون أن يغفروا سيظلُّ مُضطهديهم ضحايا لهم بعدما ينتهي الخطر أو الألم الجسديّ.

والأكثر من ذلك أن بإمكان "جيرَد" و"هيلا" و"يوسف" أن يُنهوا دوامة الكراهية بالغُفران بالرغم من أنّهم أنفسهم عانوا كثيراً. فاستطاعوا أن يتحرّروا من مشاعر الرُعب التي انتابهم في الماضي.

الفصل الرابع

باركوا الذين يضطهدونكم

يقف الإنسان في حيرة من أمره أمام بعض المسائل – بالأخص أمام ما نشهده من خطايا البشر - ويتساءل: هل يجب أن أستخدم القُوّة أم المحبّة المُتواضعة؟ ... قرّر دائماً استخدام المحبة المُتواضعة! ... وإن صمّمت أن تفعل ذلك مرّة واحدة وللأبد، فربّما ستُخضع العالم كله لك. فالمحبّة المُتواضعة قويّة للغاية، ومن أقوى الأشياء، ولا يوجد شيء مثلها.

قول من
فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoevsky
وهو من أكبر الكتاب الروس ومن أفضل الكتاب العالميين

قَالَ السيد المسيح في الموعظة على الجبل إنّه يجب أن نحُبّ أعداءنا – وقد قال أيضا أنّه يجب أن "نُبارك" الذين يضطهدوننا. ولم تكُن هذه مُجرّد نظريّة، لكنه مبدأ أظهره يسوع المسيح بوضوح في كلماته على الصليب حين قال: "**يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ.**" (لوقا 23: 34) وصلّى اسطيفانوس أوّل شهيد في المسيحيّة صلاة مُشابهة لهذه عندما تعرّضت حياته لنهاية مأساويّة إذ قال: "يا رَبُّ، لا تَحسُبْ علَيهِم هذِهِ الخطيئَةَ!" (أعمال 7: 60)

يسخر كثيرون من هذه الأفعال ويعتبروها حماقة مُدمّرة للنفس. فكيف لنا أن نُبارك هؤلاء الذين يسعون لإيذائنا أو وضع نهاية لحياتنا؟

عندما أعطيت نسخة من هذا الكتاب قبل طباعته لصديقي "موميا أبو جمال Mumia Abu-Jamal" وهو كاتب الانتقادات اللاذعة من الأميركيين الأفارقة الذي ينتظر عقوبة الإعدام في ولاية بنسلفانيا الأمريكية، كان ردُّ فعله كما يلي:

> من السهل على الناس الذين يعيشون في مكان يشبه الجنّة أن يعظوا عن الغُفران عندما يكون لديهم ما يكفيهم من الطعام والمزارع والأراضي والبيوت الجميلة والمشروعات التجاريّة وما إلى ذلك. لكن هل من العدل أن نقول إنّ من يعيشون في جُحور من الجحيم - بلا وظيفة ومُهدّدين بموت وشيك بسبب الجوع - أولئك الذين وصفهم الكاتب "فرانز فانون Frantz Fanon" في كتابه "تعساء الأرض The wretched of the earth"، أن يغفروا لملايين الناس الذين يتمتّعون بصحّة جيّدة ويدلون بأصواتهم لصالح هذه المجاعة؟ أو التصويت من أجل الحرب؟ أو التصويت لإقامة السجون؟ أو التصويت من أجل استمرار القمع ضدهم؟ هؤلاء الذين يتمنون من صميم قلوبهم لو لم يكن قد وُلِدوا في هذا العالم أصلاً؟ فهل سيغفرون لهم على القمع الذي ينتظرهم؟ وعلى الإبادة الجماعية الآتية؟

كان "مارتن لوثر كنج Martin Luther King،Jr." من الأشخاص الذين رأوا أنّهُم يجب أن يغفروا، وقد قال: "رُبّما لا تُوجد وصيّة من وصايا يسوع المسيح يصعُبُ تنفيذها مثل تلك الوصيّة التي تأمُرُنا بأن نُحبّ أعداءنا". وقد كتب هذا في كتابه الذي كان من أفضل الكتب مبيعاً في عام 1963 بعنوان "القُوّة لنُحِب". فيقول فيه:

لقد شعر بعض الناس أنّ المُمارسة الفعليّة لمحبّة الأعداء غير ممكنة. فيقولون إنّه من السهل أن تُحبّ هؤلاء الذين يُحبُّونك، لكن كيف يُمكن للمرء أن يُحبّ هؤلاء الذين علناً وبكامل المكر يسعون لأن يهزمونه...؟

وحاشا لوصية محبة الأعداء أن تكون وصية حالم متديّن مثالي، بل هي ضرورة حتمية لبقائنا. فالمحّبة حتى لأعدائنا تُعتبر مُفتاحا لحلّ مُشكلات عالمنا. إنَّ يسوع هو ليس شخص مثالي غير عملي، بل إنه واقعي وعملي...

إنّ الرد على الكراهية بالكراهية يُضاعف من الكراهية، ويُزيد من سواد الليل الذي هو سلفاً خالٍ من النجوم. فالظلام لا يقدر على طرد الظلام؛ فالنور وحده القادر على ذلك. والكراهية لا تقدر على طرد الكراهية؛ فالمحبّة وحدها القادرة على ذلك. فالكراهية تضاعف الكراهية، والعنف يضاعف العنف، والقسوة تضاعف القسوة في دوامة جارفة على طريق الدمار...

إن المحبّة هي القُوّة الوحيدة القادرة على تحويل العدوّ إلى صديق. فلا يُمكن أن نتخلّص من أعدائنا عندما نقُابل كراهيتهم بكراهية؛ لكننا نتخلّص من العدو بالتخلُّص من العداوة. فالكراهية بطبيعتها مُدمّرة ومُمزِقة؛ أمّا المحبّة بطبيعتها فتخلق وتبني. فالمحبة تغيّر الآخرين بقوة شافية.

لقد كان التزام "كنج" بالمحبّة واتخاذها كسلاح سياسيّ نابع من إيمانه المسيحيّ، لكن كان لديه أيضاً نزعة عملية في تفكيره. فقد عَلِم أنّه كان عليه وكان على كل زملائه الأمريكيين الأفريقيين انتظار النتائج والعيش لعقود تالية في المنطقة نفسها التي كانوا يُقيمون فيها حملاتهم للحصول على اعتراف الحكومة بحقوقهم المدنية، التي حرُموا منها لمائتي عام بسبب لون بشرتهم، لا غير. فلو سلموا لأنفسهم إلى الشعور بالبغض عن المعاملة التي تلقونها،

فسيتحوّل الأمر إلى عُنف وهذا من شأنه أن يؤدي ببساطة إلى مزيد من البغض والاستياء في المستقبل. وبدلاً من تهديم جدران الحقد العنصري، فسيصير بناءه أعلى. إن المغفرة لظالميهم هي الكفيل الوحيد لتحرير الأمريكيين الأفريقيين – وأيضاً الأمريكيين البيض - من "الدوامة الجارفة نحو الدمار". فالغُفران هو وحده القادر على أن يشير إلى الطريق الذي يقودنا إلى مُستقبل أكثر إشراقاً. فقد قال مارتن لوثر:

يجب أن نُنمّي قُدرتنا على الغُفران ونُحافظ عليها. فالشخص الذي يخلو من قُوّة الغُفران، يخلو من قُوّة المحبة. ومن المستحيل أن يبدأ الشخص حتى في محبّة أعدائه دون قبول مسبّق بضرورة الغُفران ومسامحة الذين يمارسون، الشر والأذية تجاهنا في كل مرة. ومن الضروري أيضاً أن ندرك أنّ الغُفران هو فعل يجب أن يبدأه الشخص المظلوم، أو الضحيّة التي تُعاني من جرح كبير، أو الشخص الذي تلقى ظُلماً فظيعاً، أو الشخص الذي تحمّل اضطهاداً شنيعاً. وربما يسألكم المعتدي لتغفروا له. ورُبّما يأتون بنفسهم، مثل الابن المُبَذّر (الابن الضال)، من الطريق المليء بالضياع، وقلوبهم تخفق عطشاً للحصول على الغُفران. لكن الشخص المجروح والأب المنتظر في البيت هو وحده الذي يستطيع أن يسكب مياه الغُفران الدافئة.

والغُفران لا يعني تجاهُل ما تمَّ اقترافه أو إعطاء تسمية كاذبة لعمل شرير. لكنه يعني بالأحرى أن الشرّ لا يعود يبقى كعائق في العلاقة. فالغُفران هو المحفّز الذي يخلق المناخ اللازم لبداية جديدة وصفحة جديدة...

نقول لأكثر خصومنا المريرين: "سنُقابل قُدرتكم على تعذيبنا بقُدرتنا على تحمُّل المُعاناة. وسنعمل على مقابلة قوتكم البدنية بقوة الروح. فافعلوا فينا ما تشاؤون، لكننا سنظلُّ نحبّكُم. ولا يُمكننا أن نُطيع قوانينكم الظالمة بضمير حيّ، لأنّ عدم التعاوُن مع الشرّ ضرورة أخلاقيّة تماماً مثلها مثل التعاون مع الخير. ألقوا بنا في السجون، لكننا سنظلُّ نُحبّكم. أرسلوا الجناة الملثّمين إلى مُجتمعنا في مُنتصف الليل، اضربونا

> واتركونا نصف ميّتين، لكننا سنظلُّ نُحبُّكم. لكن كُونوا مُتأكّدين من أنكم ستهكون من جراء قُدرتنا على تحمُّل الألم. ففي يوم من الأيام سنكسب حُريّتنا، لكن ليس من أجلنا فقط. فسنناشد كثيراً قلوبكم وضمائركم بحيث أننا سنكسبكم في هذه العملية، وانتصارنا سيكون نصرا مزدوجا."

في ربيع عام 1965 خرجتُ في مسيرة مع "مارتن لوثر كنج" في مدينة ماريون بولاية ألاباما، لأشهد بصورة مباشرة محبّته القلبية وتواضعه في مواجهة الظُلم الفظيع.

كنتُ أزور أصدقاء قدماء في معهد تُسكِجي Tuskegee في ولاية ألاباما عندما سمعنا بموت "جيمي لي جاكسون" وهو شابٌّ أُطلق عليه الرصاص قبل ثماني أيّام من ذلك التاريخ عندما اخترق رجال الشرطة مُظاهرة في إحدى الكنائس في مدينة ماريون. واندفعت قوات الشرطة المحلية من كل أنحاء مركز ولاية ألاباما لتجتمع في المدينة وضربت المُتظاهرين بالعصيّ أثناء تدفقهم بالشوارع.

وقد وصف المُتفرّجون المشهد أنه كان فوضوي تماما، حيث قام الناس البيضُ الذين كانوا يتفرجون بتحطيم كاميرات الصحافة وكسر مصابيح الشوارع، في الوقت الذي كانت قُوّات الشُرطة تهاجم الرجال والنساء بوحشّية، واستمرّ بعضهم في الركوع والصلاة على درج كنيستهم. وكانت جريمة "جيمي" أنّه اعترض ضابط الشرطة الذي كان يضرب والدته بلا رحمة. وكان عقابُه أن يتمّ إطلاق الرصاص عليه في معدته ويلقى ضربة بالعصا على رأسه ليوشك على الموت. ورفضت المُستشفى المحليّة إدخاله، لذلك نُقل إلى مدينة "سيلمة Selma" في ولاية كاليفورنيا حيث استطاع أن يُخبر الصحفيين بقصّته. وقد مات بعد عدّة أيّام.

وفور سماعنا بموت "جيمي" ذهبنا إلى مدينة "سيلمة". وكانت معاينة الفقيد في المُصلّى الصغير لكنيسة منطقة براون حيث كان التابوت مفتوحاً لكن على الرغم من أنّ الطبيب القانوني بذل قصارى جهده لكي يُخفي جروح جيمي إلاّ أنّه لم يستطع إخفاء الجروح التي في رأسه: فقد كانت هناك ثلاث

ضربات قاتلة، كلّ منها بعرض بوصة وبطول ثلاث بوصات أحدها يمرُّ فوق أُذنه والأخرى في قاع الجُمجمة والأخيرة في أعلى رأسه.

وحضرنا الجنازة هناك بعدما تأثّرنا بالموقف بشدّة، حيث كانت الأولى من بين جنازتين. وكانت القاعة تعجُّ بحوالي ثلاثة آلاف شخص (كثيرون غيرهم كانوا يقفون بالخارج)، أما نحن فجلسنا على عتبة شُبّاك في الخلف. لم نسمع أي تعليق عن الغضب أو الانتقام في تلك الجنازة، بل انتشرت روح التشجيع بين الحاضرين وبصفة خاصة عندما رنّموا ترنيمة العبيد القديمة: "لن أسمح لشخص أن يُبعدني عما أريد Aint gonna let nobody turn me round."

وفيما بعد كان الجوُّ السائدُ في كنيسة صهيون النظاميّة (لطائفة النظاميين Methodists) في ماريون أكثر هدوء وبكل ما في الكلمة من معنى. فقد كان هناك صفٌّ طويل من قُوات الشرطة المحلية يقفون في ساحة محكمة المدينة في الجهة المقابلة من الشارع، وأيديهم تمسك بعصي ومركزين نظرهم علينا. كانوا هُم الرجال نفسهم الذين هاجموا السود في مدينة ماريون منذ عدة أيام قليلة. هذا وقد تجمّع جمهور البيض في منطقة قريبة من المبنى العام للمدينة ولم يكونوا أقلّ رُعباً. وقد قاموا بمسح كامل للمنطقة بالنواظير والكاميرات وصورونا بالكامل بحيث شعر كل واحد منا أنه تمَّ وضع علامة عليه.

وعند المقبرة، تحدث "كنج" عن الغُفران والمحبّة. وناشد شعبه أن يُصلوا من أجل رجال الشرطة، وأن يغفروا للقتلة، وأن يغفروا لهؤلاء الذين يضطهدونهم. ثم أمسك بعضنا بأيدي بعض ورنمنا "سنغلب We shall overcome". كانت لحظات لا يُمكن نسيانها. فإن كان هناك مكان في العالم له جميع الدواعي ليحقد وينتقم فسيكون هذا المكان. غير أننا لم نحسّ مطلقاً بشيء من هذا القبيل ولا حتى من طرف أهل "جيمي".

كان الذهاب إلى "سيلمة" محفوفاً بالمخاطر فبعد أربعة أيام فقط من الجنازة تواجهت الشرطة الخيّالة مع متظاهرين كانوا في طريقهم الى مدينة مونتجمري واستعملوا الغازات المُسيلة للدموع حيث اندفعوا بخيلهم نحو المتظاهرين وأسقطوهم أرضاً وضربوهم بلا رحمة. وبعد مُضيّ يومين من هذا الحادث تعرّض قسيس أبيض "جيمس ريب" من مدينة بوسطن للضرب في

مركز مدينة "سيلمة"، ومات مُتأثّراً بجراحه بعد يومين. وخلال الثلاثة أسابيع التي تلت لقت "فيولا ليوزو" وهي سيّدة بيضاء من مدينة ديترويت مصرعها بطلق ناريّ عندما كانت تُقلُّ رجلاً أسود من مظاهرة. (لقد فعلنا نحن أيضاً الأمر نفسه قبل أسبوع واحد فقط من تلك الحادثة، عندما أوصلنا ثلاثة سيدات كُنّ بحاجة إلى وسيلة مواصلات تُقلهُم إلى ماريون.)

بعد عدّة سنوات تأثّرتُ بشدّة عندما قرأت عن غُفران أولاد مدارس "سيلمة" في تلك الأيام نفسها من فبراير ومارس 1965. فقد نظم التلاميذ مسيرة سلميّة بعد انتهاء دوام المدرسة وإذا بمأمور البلدة السيئ السمعة "كلارك" يصل. وبدأ هو وتابعيه في دفع التلاميذ ونخسهم، وحالاً أُجبِر التلاميذ على الركض باتجاه معين. فاعتقد الفتيان والفتيات في البداية أنّ رجال الشُرطة يدفعونهم إلى مركز توقيف البلدية لحجزهم، لكنهم سرعان ما اكتشفوا أنّهُم مُتّجهين إلى مُعسكر السجن على بُعد خمسة أميال من المدينة. ولم يهدأ رجال الشرطة إلاّ عندما أخذ الأولاد بالتقيؤ. وفيما بعد ادّعت الشرطة أنّها أرادت أن تنهك "حُمى المظاهرات" في "سيلمة" للتخلص منها للأبد.

بعد عدّة أيّام من تلك الحادثة نُقل المأمور "كلارك" إلى المستشفى بسبب إصابته بآلام في الصدر. والأمر الذي لا يمُكن تصديقه هو أن أولاد المدارس في "سيلمة" نظّموا مُظاهرة ثانية خارج المحكمة وهذه المرّة مرتلين الصلوات ورافعين لافتات تدعو للشفاء العاجل.

لاحظ "روبرت كولس Robert Coles" وهو طبيب نفساني للأطفال ومشهور في أمريكا، لاحظ موقف التسامح العجيب ذاته لدى الأولاد عندما عمل في مستشفى نيو أورليانز في عام 1960. فقد عارض الأهالي البيض علناً قرار المحكمة الفيدراليّة الخاص بإلزام مدارس المدن بإنهاء الفصل العنصري فيها، ولم يكتفوا بسحب أولادهم من أيّة مدرسة تسمح بوجود طالب أسود فحسب بل حتى صاروا يرابضون أمام المدارس ليمنعوهُم من الدخول إليها.

كانت هُناك فتاة في السادسة من عمرها تدعى "روبي بريدج" وكانت هي الفتاة الوحيدة الأمريكيّة من أصل أفريقيّ في مدرستها. ولأسابيع طويلة كان عليها دخول المدرسة في حراسة الحرس الفيدراليّ. وفي أحد الأيّام رأتها المُعلّمة

وهي تُتمتم بكلمات من فمها حين كانت تعبر صفوف الآباء البيض الغاضبين، وعندما ذكرت المعلمة ذلك أمام "كولس" انتابه الفُضول قائلاً: "ما الذي كانت تقوله؟"

فلما سأل "كولس" الفتاة "روبي" أجابت أنّها كانت تُصلّي من أجل الآباء البيض. فاندهش "كولس" وسألها باستغراب: "ولماذا تُصلّين لهُم؟" فأجابت: "لأنّهُم بحاجة لمن يُصلّي لأجلهم" فقد سمعتُ في الكنيسة كلمات يسوع المسيح وهو يموتُ على الصليب قائلاً: **يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ.**" لقد اخترقت هذه الكلمات قلبها. وقد رأى الطبيب "كولس" الفتاة "روبي بريدجز" ومن مثلها على أنّهم بذور لولادة أمريكا الجديدة.

وحاشا للغُفران أن يجعلنا ضعفاء أو عرضة للاعتداء، بل إنّه يُقوّي حياتنا وعملنا. فهو يجلب نهاية إنسانية حقيقية لأصعب المواقف، وذلك لأنّه يسمح لنا أن نترك جانبا مقاييس العدالة الإنسانيّة والمُجازاة عن الشرّ بالشر، وأن نختبر السلام الحقيقيّ للقلب. والأكثر من ذلك، فهُو يُوظّف سلسلة من ردود الأفعال الإيجابيّة التي تأتي بثمار الغُفران للآخرين أيضا.

الفصل الخامس

أحِبُّوا أَعداءَكُم

وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ. وَصَلُّوا لأَجْلِ الَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ، لِكَيْ تَكُونُوا أَبْنَاءَ أَبِيكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ، فَإِنَّهُ يُشْرِقُ شَمْسَهُ عَلَى الأَشْرَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَيُمْطِرُ عَلَى الأَبْرَارِ وَالظَّالِمِينَ. لأَنَّهُ إِنْ أَحْبَبْتُمُ الَّذِينَ يُحِبُّونَكُمْ، فَأَيُّ أَجْرٍ لَكُمْ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ ذلِكَ؟ وَإِنْ سَلَّمْتُمْ عَلَى إِخْوَتِكُمْ فَقَطْ، فَأَيَّ فَضْل تَصْنَعُونَ؟ أَلَيْسَ الْعَشَّارُونَ أَيْضًا يَفْعَلُونَ هكَذَا؟ فَكُونُوا أَنْتُمْ كَامِلِينَ كَمَا أَنَّ أَبَاكُمُ الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ هُوَ كَامِلٌ.

قول من
يسوع المسيح

"جيمس كريستِنسن James Christensen" وهو من أحد معارفي في روما الذي هو رئيس دير الترابيين هناك "Trappist monastery" (إحدى الحركات الرهبانية)، سمعتُ منه قبل مدة قصّة عجيبة عن الغُفران. ففي عام 1996 اختطفت مجموعة من المُسلمين المتطرفين في الجزائر -الجماعة الإسلامية المسلّحة G.I.A - سبعة من زملاء "جيمس" الرهبان في جبال أطلس، وهدّدت أن تحتجزهم كرهائن حتّى تُطلق فرنسا عددا من رفاقهم المسجونين. وعندما رفضت الحُكومة الفرنسّية، ذبحت تلك الجماعة الرُهبان.

ارتعبت فرنسا كُلّها كنتيجة لذلك، وأطلقت كلّ كنائس فرنسا الكاثوليكيّة - وعددها 40000 كنيسة - أجراسها في آن واحد كذكرى لهؤلاء الرهبان. إلا أنَّ ما أثر فعلاً فيّ من هذه المأساة شيء مُختلف تماماً وقعت ظلاله منذ عامين، فقبل المذبحة الجزائريّة هَجَسَ "كريستيان دي تشرجي Christian de Chorge"، وهو رئيس دير الرهبان الجزائري، هَجَسَ هاجساً غريباً من أنّه سيموت ميتة عنيفة، وكتب خطاب غُفران لمُغتاليه مُسبقاً. وختم الخطاب وتركه مع والدته في فرنسا. ولم يُكتشف الخطاب إلاّ بعد موته، وفيما يلي جزء منه:

إن كان عليّ أن أصبح في يوم من الأيّام - وربُمّا اليوم - ضحيّة للإرهاب الذي يبدو أنه يستهدف كلّ الأجانب الذين يعيشون في الجزائر، فأودُّ أن يتذكّر المُجتمع الذي أعيش فيه وكنيستي وعائلتي أنّ حياتي قد قدمتها لله وللجزائر؛ وأن يُسلِّموا أن سيد الحياة الوحيد لم يكن غافلاً عن هذا الرحيل الفظيع.

عندما يأتي الوقت أودُّ أن تُتاح لي الفُرصة لكي أطلب الغُفران من الله لي ولأتباعي في البشريّة، ولأن أغفر من كلّ قلبي للشخص الذي سيقتلني.

لم أرغب في ميتة كهذه. فيبدو لي أنّه من الضروري أن اذكر ذلك - فكيف سأفرح إذا اتُهم الشعب الجزائريّ الذي أحبُّه بقتلي؟

أشكر الله على هذه الحياة المفقودة التي أبذلها في سبيل الآخرين كما أوصانا السيد المسيح، وفي شكري هذا، الذي أقدمه لكلّ شيء يحدث في حياتي من الآن فصاعدا، فأنا بالتأكيد... أودُّ أن أشملك هُنا في صلاتي يا صديق لحظاتي الأخيرة لأنّك لا تعلم ماذا تفعل... وأُسلّمك لله الذي أراك في وجهه. ولعل بعضنا يجد بعضا، يا أيها "اللصوص الطيبين" الفرحين في السماء، إن كان هذا يُسعد الله، أبانا أجمعين.

ومن الواضح أنّ رئيس الدير هذا مع إخوانه الرهبان لم يكونوا مجرد رجال شُجعان ليقبلوا مثل هذا الموت. فهناك كثيرون من أمثالهم. فقد امتلأ هؤلاء

الرجال بروح التواضُع النادرة ومحُّبة غفرانيه التي لا يمُكن أن نصفها إلا أنهّا مُشابهة لروح السيد المسيح.

إسرائيل وفلسطين تحتاج إلى المصالحة مثلها مثل أماكن عديدة في هذه الأرض. ففي عام 1988 سافرتُ لأوّل مرة إلى تلك الأرض التي مزّقتها الحروب حيث قابلت إلياس شقور وهو أسقف ملكي (من طائفة الملكيين الكاثوليكيين) وناشط فلسطينيُّ عمل لسنوات طويلة بلا كلل من أجل السلام. واستمرّت صداقتنا حتّى هذا اليوم، وقد زار إلياس مجتمعاتنا المسيحية - برودرهوف Bruderhof - مرّتين.

يمكن أن يتوقع الكثيرون ويبرروا امتلاء صدره بالبغض والحقد. فهو "إنسان بلا بلد" لأن قريته دُمّرت في عام 1947، ودخل السجن لأكثر من مرّة وتحمّل سنوات من القسوة والاعتداء على أيدي الحكومة الإسرائيليّة. لكنه واحد من أكثر الناس الذين عرفتهم مملوءين بالحرارة والتواضُع والحنان. فعلى الرُغم من أنّه فلسطينيّ مُشرّد إلاّ أنّه ما زال مُقتنعاً طوال الوقت بفكرة، "أن اليهود يستحقوُّن وطنا، لا لأنّهُم يهود، لكن لأنّهُم بشر." وفي زيارته الأخيرة لمجتمعنا المسيحي "دارفل Darvell" في بريطانيا ذكّرنا قائلاً:

> لو امتلأ قلبي بالغُفران لليهود وللصهاينة، وللجنود الذي كسروا عظام أخي وسجنوا أبي - لكان في مقدوري آنذاك الذهاب إلى ذلك اليهودي لأُخبره بالحقّ وجهاً لوجه، وسيشعر أني أحبُّه، على الرُغم من أنّي أكره ظُلمه... وسأفضل أن أدعوه إلى الاهتداء بدلاً من تغيير الأدوار وأصير أنا الظالم – حاشا!

والكاهن الفلسطيني المعروف، نعيم عتيق من كاتدرائية القديس جورج في القدس له النظرة نفسها. فقد تعلّم الغُفران من أبيه الذي فقد كلّ شيء بسبب الجيش الإسرائيلي في عام 1948. فيقول:

عندما يحقد الناس على الآخرين، تبتلعهم قوة الحقد وتستهلكهم بالكامل... لذلك واصل مُقاومة الشعور بالكراهية والحقد. فأحياناً سيكون لك اليد العُليا، وأحياناً أُخرى ستشعر أنك انهزمت. وعلى الرُغم من أنّ هذا أمرا صعبا للغاية، لكن لا تسمح للكراهية أن تتغلّب عليك... ولا تكُفّ عن مُحاولة العيش بوصيّة المحبّة والغُفران. ولا تخفف من القوّة الكامنة في رسالة يسوع المسيح: فلا تتجنبها، ولا تصرف النظر عنها على أنّها كلمات غير واقعية وغير عمليّة. ولا تُحاول أن تُكيّفها مع وضعك مُحاولاً أن تجعلها أكثر إمكانيّة للتطبيق في الحياة العمليّة. لا تغيّرها لتجعلها تناسبك. لكن احتفظ بها كما هي، وتلهف عليها وتشوّق لها، واعمل مع الله من أجل تحقيقها.

وبشارة عوض، مثله مثل الكثيرين في جهتي الصراع العربي – الإسرائيلي، قد نال نصيبه من الظلم. وهو من أحد معارفي الفلسطينيين. فقد أخبرني حديثاً عن صراعه الذي استمر طوال حياته ليغفر، فقال:

في عام 1948 مات آلاف الفلسطينيين في الحرب الفظيعة التي قامت بين العرب والمُستوطنين اليهود وتشرّد الكثيرون. ولم تسلم عائلتنا من هذه الحرب. فقد قُتل والدي برصاصة طائشة، ولم يكن هُناك مكان يليق بدفنه. فالجميع كان يخشون أن يترُكوا تلك المنطقة خوفاً من أن يصيبهم الرمي من كلا الجانبين، ولم يكن هناك كاهن أو قسٌ ليُصلّي عليه. لهذا

قرأت لنا أمي من الكتاب المُقدّس ودفن الرجال الذين كانوا موجودين أبي في ساحة الدار. فلم تكُن هناك وسيلة لكي يأخذوه إلى المقابر العاديّة في المدينة.

وأصبحت أُمي أرملة في سنّ التاسعة والعشرين، ولديها سبعة أطفال. وكُنُت في ذلك الوقت في التاسعة من عمري. ولعدّة أسابيع حاصرتنا النيران ولم نستطع أن نترك غرفة السرداب. وفي إحدى الليالي دفعنا الجيش الأردني للهروب إلى المدينة القديمة. وكانت هذه هي المرّة الأخيرة التي رأيت فيها منزلنا وأثاثنا. وهربنا بملابسنا على ظهورنا وكان بعضنا يرتدي ملابس النوم فقط...

وفي المدينة القديمة كُنّا لاجئين. فوضعونا في مخزن للنفط وبلا أثاث. وأعطتنا أُسرة مُسلمة بعض البطانيات وشيئاً من الطعام. كانت الحياة قاسية للغاية؛ وما زلت أتذكّر الليالي التي كُنّا نذهب فيها للنوم بلا أكل.

وأخذت أُمي تدرس التمريض، وحصلت على وظيفة في المستشفى بمبلغ 25 دولاراً في الشهر. وكانت تعمل في الليل وتستكمل دراستها أثناء النهار، وتم وضعنا نحن الأطفال في الميتم. وقبلت مدرسة مُسلمة أخواتي البنات أما نحن الصبيان فقد تم وضعنا في منزل سيدة بريطانيّة. وكان هذا كارثة بالنسبة لي فقد فقدت والدي والآن انفصلت من أمي ومن عائلتي.

كان يُسمح لنا بزيارة المنزل مرّة في الشهر، ومكثنا في بيت البنين لمُدّة اثني عشر عاماً. استمرّت معاناتي ومعاناة إخوتي ومعاناة ثمانين ولد آخر، فلم يكُن لدينا ما يكفي من طعام، وكان الطعام سيّئاً للغاية، وكانت المُعاملة قاسية.

ذهب بشارة عندما بلغ سن الرشد إلى الجامعة في الولايات المُتّحدة وأصبح مُواطنا أمريكيّا. وعاد مرّة أُخرى إلى إسرائيل وحصل على وظيفة كمُعلّم في مدرسة مسيحيّة. وعندما يتذكر السنين السابقة يقول:

> في السنة الأوُلى شعرتُ بالإحباط، فلم أنجز أيّ شيء، وشعرت بالهزيمة... فقد كان هناك جبل من الكراهية في داخلي ضد اليهود الظالمين: فقد كان كلّ تلاميذي فلسطينيين، وجميعهم عانوا بالطريقة نفسها التي عانيت بها... ولم أستطع مُساعدة تلاميذي بسبب مشاعر الكراهية نفسها التي كانت بداخلي فقد أضمرتها في نفسي منذ طفولتي حتى من دون أن أدري بها.
>
> وفي تلك الليلة صلّيت إلى الله بدموع. وطلبت منهُ أن يغفر كراهيتي لليهود لأنّي كُنت قد سمحت للكراهية أن تُسيطر على حياتي. فأخذ الله في تلك الليلة مشاعر الإحباط والكراهية وفُقدان الأمل ووضع مكانها المحبّة.

في المجتمع الذي يتمّ فيه التأكيد على ضرورة الحفاظ على الذات وعلى تشجيع الفردانية، يجري تجنّب أعمال المغفرة فيه، إن لم يتمّ الازدراء بها. فيُنظر إليها كضعف؛ لقد تعلّمنا أن نُطالب بحقوقنا ونحميها لا أن نتنازل عنها.

غير أنَّ رجاء شديد وهي المُحامية الفلسطينيّة والمدافعة عن حقوق الإنسان تُفَنِّد كل هذا وتقول إنّ يسوع المسيح قلب هذا المنطق رأساً على عقب عندما دعا الناس إلى الغُفران لأعدائهم. فتقول:

> تحمل ممُارسة الغُفران الكثير من القوة. فهي تأكيد على كرامة الإنسان لأنّه يملك الوسيلة والقُدرة على الغُفران... رُبّما يكون من الصعب أن تفهم ذلك، لكن من وجهة النظر المثاليّة أعتقد إنّه إن كانت هُناك رغبة في إحلال السلام هنا فلا بُدّ أن يكون هُناك غُفران... فيجب أن نغفر للإسرائيليين ما فعلوه فينا.

لقد صار الأخ عز الدين أبو العيش معروفا لدى الكثيرين بفضل قصته التي تتسم بروح المغفرة والتسامح نحو قتلة بناته الثلاثة وابنة أخيه في حرب غزة عام 2009م بين الإسرائيليين والفلسطينيين. فهو يؤمن إيمانا وجدانيا بضرورة التعايش السلمي بين الناس لاسيما بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وأيضا الاحترام المتبادل بل حتى محبة بعضهم بعضا. ويؤمن بأن الحل للقضية الفلسطينية يكمن في السلام والمصالحة بين الطرفين لأنه يرى أن الناس لا يختلف بعضهم عن بعض. فجميعهم لديهم قلب نابض ورغبة في السلام، على خلاف ما يراه على الصعيد السياسي.

وقد عمل الأخ عز الدين كطبيب أمراض العقم في مستشفى إسرائيلي، وأيضا باحثا طبيّا، وهو أول طبيب عربي من غزة يعمل في مستشفى إسرائيلي، حيث كان يعالج مرضاه من فلسطينيين وإسرائيليين بغض النظر عن أصلهم. ولذلك كان لديه الكثير من زملاء العمل والأصدقاء والمعارف في إسرائيل والكثير من هذه العلاقات كانت حميمة للغاية. ثم إنه قد حصل على شهادات طبية متخصصة من جامعات دولية معروفة.

والأخ عز الدين يعرف جيدا معنى المعاناة لأنه قاسى كثيرا مع أهله مما أفرزته أحداث عام 1948م عند تأسيس دولة إسرائيل. وطفولته كانت صعبة للغاية وعانى من الحرمان والظروف المعيشية القاسية جدا وبشكل غير معقول. وقد اشتغل أشغالا شاقة ومختلفة وهو في عز صباه. لكن كل هذه الحياة القاسية خلقت في داخله تصميما وعزما وطموحا وسعيا لمستقبل أفضل له ولشعبه.

ويمكنكم قراءة قصة حياته الكاملة في كتابه بالعربية "لن أكره" وبالإنكليزية "I Shall not Hate" وقد حاز عز الدين على جوائز دولية تقديرية كثيرة. وهو يقوم حاليا بترويج السلام والمصالحة هو وأولاده وبناته. وقد أسس مؤسسة "Daughters for Life Foundation" إحياء لذكرى بناته الثلاث، حيث

تقدم هذه المؤسسة المنح الدراسية لتشجيع الشابات لمتابعة دراساتهن في جامعات فلسطين وإسرائيل ولبنان والأردن ومصر وسوريا.

ولم يأت قراره بمسامحة اليهود بهذه السهولة فقد صارع داخليا في نفسه في هذا الموضوع، فكانت أصوات كثيرة تدعوه إلى الانتقام والأخذ بالثأر، لكن كان هناك صوت آخر يدعوه إلى التسامح وإلى عدم إراقة الدماء وإلى كسر دوامة الشر ودوامة الانتقام، وكان ذلك الصوت هو صوت ضميره. فكان يتساءل ممن سيأخذ الثأر، هل سيأخذه من أولئك الأطفال الإسرائيليين الأبرياء الذين كان يساعدهم على أن يولدوا؟ أم، من أمهاتهم؟ أم، من تلك الأسرة اليهودية التي قدمت له عملا أثناء صباه؟ أم، من أصدقائه الإسرائيليين؟ أم، من زملاء عمله في المستشفى؟ أم، من أصدقائه من دعاة السلام اليهود؟

وقد استضافته إحدى مدارس كنيستنا في الولايات المتحدة الأمريكية ليتكلم إلى طلاب الإعدادية عن تجاربه في الحياة وعن طموحاته وأمنياته للآخرين. وهو مليء حماسة وإيمان بقدرة الإنسان على تغيير الأوضاع من حوله. وبالرغم من أن دموعه كانت تسيل أثناء إلقائه الخطاب على الطلاب بسبب عذابه القلبي ولوعته وحزنه على فقدانه لبناته الثلاث وبالرغم من الحرمان الذي لاقاه في طفولته وشبابه وهو يترعرع في مخيم جباليا في غزة إلا إننا رأينا أنه لم يسلّم نفسه إلى فخ الكراهية وجنونها وتهوّرها، رافضا أن يقع في براثن الأحقاد المريضة، ولم يدعها تستولي عليه، بل نَشَلَ نفسه منها واختار طريق السلام والمسامحة والمصالحة والكرامة الإنسانية. لأنه يعلم أن روح الانتقام والعنف لا تنتمي إلى الروح الإنسانية الأصيلة بل هي دخيلة عليه ولا تفرز إلا خرابا وموتا. وهو لا يريد أن يعيش وفقا لها بل وفقا لروح الحياة. وهنا نتذكر كلام السيد المسيح وهو على الصليب عندما صلى لأبيه السماوي من أجل قاتليه، قائلا: "يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ". (لوقا 23: 34) وهو يؤكد أن إيمانه بالله ودينه الإسلامي هو الذي يقويه على المضي في طريق السلام والغفران.

ومن المثير للانتباه، نرى أن قصته تشبه قصة يوسف بن أَلِعازَر Josef Ben-Eliezer الذي له خلفية يهودية وقصة ألياس شقور الفلسطيني المسيحي

الذي كتب كتاب "أُخوّة الدم" وبالإنكليزي "Blood Brothers". فنرى أن هؤلاء الثلاثة، مسلم ويهودي ومسيحي، عانوا الأمرَّين من جراء أحداث زمان الحرب العالمية الثانية وأحداث عام 1948م، وما خلفته من أحداث وحروب ومآسي، وقصصهم تقطّع القلب، إلا أنهم لم يسلموا أنفسهم للبغض والكراهية والعنف بل اختاروا طريق الغفران والسلام والمصالحة والمؤاخاة.

وفي هذه السطور القليلة لا يسعني التعبير عن كل ما خاضه الأخ عز الدين أبو العيش في حياته وعن كيفية وصوله إلى قراراته المسالمة الصعبة، ونصيحتي هي أن تقرؤوا كتابه "لن أكره"، لكن قبل أن تقرؤوه يجب أن تعلموا إن القصة تدور بالحقيقة حول موضوع صراع الحياة، والتواجه مع حقائق مرّة وصعبة، وسوف يأخذكم الكتاب إلى خيار السلام والغفران، ونبذ العنف والكراهية، الأمر الذي يجعلنا كلنا نصارع نفسيا مع قيمنا ومبادئنا المليئة بالعنف ومع انتفاخنا وكبرياؤنا، لكي نتمكن من اختيار مثل هذا القرار الصعب، قرار الغفران والمسامحة والمحبة، فهل تجرؤون على قراءته؟

الفصل السادس

الغُفران والعدالة

الحقُّ بلا محبّة يقتُل، والمحبّة بلا حقّ كذب.

قول من
ايبرهارد آرنولد Eberhard Arnold
علامة لاهوتي ألماني ومؤسس حركة برودرهوف المسيحية

أختَبرَ "شاؤول دوركام Joel Dorkam"، وهو صديق من كيبوتس "تسوبا" في إسرائيل، (كيبوتس هي مجتمعات اسرائيلية تعاونية)، أختَبرَ مصاعب مُشابهة لتلك التي مرّ بها كلا من "هيلا" و"يوسف" اللذين تناولنا قصّتهما في الفصل الثالث، لكنه يُضيف نظرة مختلفة إلى حدّ ما. فقد اعترف "دوركام" بالحاجة إلى الغُفران المُتبادل والثقة المُتبادلة في الزمن المعاصر للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وباعتباره يهودي فقد تحمّل المخاطر لكي يُقيم علاقات صداقة مُستمرّة مع الناس الألمانيين العاديين. إلاّ أنّ العذاب يتملكه حين يفكر بالغُفران للنازيّين الذين دمّروا طفولته وذبحوا أبناء قوميته من اليهود. وتُثير قصّته سؤالا قديما للغاية تفرضه الأجيال التي عانت على مر التاريخ الإنسانّي، وهذا السُؤال هو: "هل الغُفران هو بلا حدود؟" فلنسمعه يحكي لنا عن تجاربه:

> وُلدتُ في كاسل بألمانيا في عام 1929 وهي سنة الأزمة الاقتصاديّة الماليّة التي كان لها آثارها الحاسمة على الشؤون العالميّة، وكانت السبب الذي

جاء بالنازيين إلى السُلطة في ألمانيا. كان أبي يعمل صُحفيّاً وأُمّي مُعلّمة. وكانت عائلتنا ميسورة الحال، وكُنّا نعيش حياة سعيدة، حتّى بدأت سُحُب التعصُّب في الظهور.

لم يأخذ أبي مسألة النازيين بجدّية في البداية مثله مثل الكثير من اليهود في كافة أرجاء البلد. فكيف يُمكن أن تسقُط الحضارة الألمانيّة العريقة في هذا الهراء؟ لكن عندما أصبح "هتلر" رئيساً للوزراء نصح أصدقاء أبي ذوو النوايا الحسنة بترك ألمانيا.

وهكذا كان على أبي أن يترك ألمانيا بلده المحبوب حيث وُلد ونشأ، التي كان قد حارب لأجلها في الحرب العالميّة الأوُلى. وبعد مدة قصيرة لحقتُ به أنا وأمي، وجُمِع شملنا ثانية في مدينة ستراسبورج Strasbourg الفرنسية. كُنّا قد أخذنا معنا القليل جداً من مُمتلكاتنا. وكانت هذه نهاية للحياة الطبيعيّة التي اعتدنا عليها، وصرنا يهود مُشرّدين رحّالة بلا جنسيّة وبلا حقوق.

كان وقتاً مثيراً لي كطفل في الثالثة من عُمره ومليء بحب الاستطلاع. فقد تعلّمتُ سريعاً عادات جديدة ولُغة جديدة، واتّخذت لي أصدقاء جدد. لكن بعد مُضّي عام كان علينا الرحيل مرّة أخرى كلاجئين ألمان، فكانوا يعتبروننا بمثابة تهديد للأمن في المناطق الحدودية. وذهبنا إلى قرية في جبال "الفوسجِز Vosges" الفرنسية وكان هذا تغييرا جديدا آخر. فقد كان على أهلي أن يتعلّما ويكتسبا مهارات جديدة ولُغة جديدة للتكيُّف مع الثقافة المُختلفة جداً، على عكس سبل الراحة لأسلوب حياتهم السابقة – وعلاوة على ذلك، كان عليهم أن يكسبوا رزقهم في ظل تلك الظُروف الصعبة...

وبعد عام احترق المصنع الذي كانت أُمّي تعمل به، مّما فرض علينا الانتقال هذه المرّة إلى مدينة مارسيليا Marseille الفرنسية الكبيرة. ومرّة أخرى حاول أبواي التأقلُم مع الحياة، وكان لهم وجوداً مقلقلا. فكثيراً ما كُنّا نُغيّر المنزل الذي نعيش فيه، ممّا يعني أنّني كنت مُضطرّا لأن أُغيّر المدرسة والأصدقاء، فلم تُتح لي أية فرصة لتكوين علاقات مُستمرّة...

بعدئذ قامت الحرب العالميّة الثانية وانهار كلّ شيء. وأصبحتُ غريباً مرّة أُخرى، بل أجنبياً... وغزا الجيش الألمانيّ فرنسا واحتلّها، وسرعان ما قام جهاز "الجستابو" (الشرطة النازية السرية) بحملات للقبض على اليهود... وتمّت مُصادرة شقّتنا ومصلحة عملنا لكننا اختبأنا بفضل مُساعدة أصدقائنا الفرنسيين.

وأخيراً قرّر أبوايّ أنّ الأمل الوحيد في نجاتنا هو في الهرب عبر الحدود إلى أسبانيا. وفي ذلك الوقت كان أبي توّه يتعافى من نوبة جراء مرض التهاب المفاصل، إلا أنه تحتّم عليه أن يسير عبر سلسلة جبال البيرنييز Pyrenees مُتّكئاً على عُكازيّن، وأحياناً كان المُهَرّب يحمله على ظهره...

وبعد مسيرة ثلاثة أيّام في الجبال المُغطاة بالثلوج، وتوسُّلات أبي لنا أن نتركه ونمضي نحن في طريقنا، أمسك بنا الدرك الأسباني Guardia Civil، ولحُسن الحظّ فقد سمحوا لنا بالعبور كما فعلوا مع ما يقرب من 10000 يهوديّ آخر عبروا الحدود بطريقة غير شرعيّة إلى أسبانيا، فلو لم يقبلونا وقاموا بإرجاعنا مرّة أخرى إلى فرنسا لكُنّا حتما هلكنا...

وهناك، تفرّقنا كما هو الحال دائماً عند مركز شرطة مقاطعة جرندة Gerona الأسبانيّة. فتم إرسال أبي إلى مُعسكر مدينة ميراندا ديل إيبرو Miranda-del-Ebro، وأُرسلتْ أُمّي إلى السجن المحليّ. وتركوني أنا بمُفردي. فقضيت أسوأ ليلة في حياتي وحيداً مُتجمّداً في زنزانة، مُعتقداً أنّني فقدت أبواي للأبد. وفي اليوم التالي أودعوني لملجأ الأيتام التابع للمدينة ممّا أحدث تحسُّناً طفيفاً في حالتي النفسيّة. وهناك بلغت سن الثالثة عشرة، وهي السن التي يتمّ فيها قبول الذكور بحسب طقوس دينية تدعى bar-mitzvah إلى كنيست الجماعة اليهودية المؤمنة.

أخذني كاهن طيب القلب تحت رعايته وهدّأني في ظلّ أشدّ ساعاتي العصيبة التي كنت أمرّ بها. وقد ساعدني أيضاً في تهريب بعض المال الذي كنت قد خبأته معي منذ خروجنا من فرنسا لتوصيله لأُمّي في السجن، حيث كانت نصف ميتة جراء مرض الديزنتريا (إسهال شديد)، وغير قادرة على شراء طعام صحيّ كافٍ. ورُبّما أنقذ هذا المال حياتها.

وبعد عدّة أشهُر أرسلوني لألحق بأُميّ، وتمَّ نقلنا إلى سجن النساء في مدريد. وكُنت الذكر الوحيد في ذلك المكان، وكان على أمي أن تُراقبني طوال الوقت. كان لنا زنزانة منفصلة، في حين كانت المسجونات الأُخريات يُزج بهنّ في عنابر تسع من عشرين إلى ثلاثين سريرا. وكُنّا ننضم إلى النساء في أثناء النهار في تلك الغُرف الكبيرة، ثم نذهب إلى زنزانتنا الخاصّة في المساء، وكُنّا نمرُّ على زنزانات الموت حيث تنتظر النساء حُكم الإعدام، ونسمع في الليل صوت طلقات الرصاص.

وفيما بعد تم لمّ شمل الأُسرة مرّة أُخرى في مدريد. وقامت "لجنة الخدمات الاجتماعية اليهوديّة المُشتركة" بتغطية نفقات معيشتنا، لكن أتى وقت كان علينا أن نختار المكان التالي الذي سنهاجر إليه، وفضّلنا الذهاب إلى فلسطين.

كان ذلك في عام 1944 قُرب نهاية الحرب، وكانت الظروف في ذلك البلد الجديد صعبة للغاية. فتشاركنا مع أسرة عمّتي في شقة صغيرة، والتحقت بمدرسة مهنيّة في "كيبوتس ياجور Kibbutz Yagur" (كيبوتس هي مجتمعات اسرائيلية تعاونية) وأصبحتُ مصلِّحاً ميكانيكياً للسيّارات. وقد تم بناء هذه المدرسة لأولاد اليهود الألمان الذين نجوا من أوروبا، لكن في الوقت الذي وصلتُ فيه لم يكن هناك من نجا، لذلك كان مُعظم التلاميذ من الذين يعيشون في تلك المنطقة - الذين يدعون بتسمية "صبر Sabras" (أي كل يهودي ولد في إسرائيل) - وكُنت غريباً ومُختلفاً عنهم هنا أيضاً بسبب خلفيّتي المماثلة لليهوديّة على النمط الألماني من ناحية ومعرفتي القليلة بالعادات والتقاليد اليهودية من ناحية أخرى...

ومع الوقت، بدأت أشعر بالألفة في ذلك البلد الجديد، وأيضاً في الكيبوتس. وكان لي أصدقاء واشتركت في الأنشطة المُختلفة، مثل جمع العنب والذُرة أثناء العُطل الصيفيّة. لكني لم استطع تحقيق الكثير من طموحاتي الشخصيّة والمهنيّة والاجتماعيّة، فقد كانت هناك فجوات كثيرة في أسلوب تعليمي. وكذلك كان الحال مع أبوايّ. وبالتدريج بدأت أُمّي تُعلّم نفسها اللغة العبريّة ووجدت عملاً في مدرسة زراعية قريبة، لكن أبي لم ينجح أبداً في تعلُّم اللغة الجديدة.

وبمجرد انتهاء الحرب أصبحت الحياة طبيعيّة إلى حد ما. فأنهيت المدرسة وأصبحت عضواً في منظمة الهجانة السريّة المسلحة Haganah وحاربت في حرب التحرير، ثم التحقت بـ تسوبا Tsuba (وهو كيبوتس قرب أورشليم) مع زوجة المستقبل سارة ذات الشعر الأحمر، وهي إسرائيليّة المولد Sabra. وأخذت على نفسي عهداً مقدساً بألاّ أرحل مرّة أخرى، فسيظل هذا بلدي مدى الحياة، وسأعيش هنا وأعمل وأربي أولادي كأحد أفراد الجماعة، وسأحاول مساعدة المُهاجرين الذين مروا بالظروف الصعبة نفسها.

والآن عندما أتذكر طفولتي، أُدرك أنّها قدّمت لي الكثير من الخبرات المُفيدة، ورُبّما مدّتني ببعض الحكمة. فقد أدركت أهمية اعتماد الناس بعضهم على بعض، ولاسيما في الشدائد. واكتشفت أهميّة مُساعدة الآخرين وكلمات التشجيع. وأدركت أن بين الناس يوجد الصالح ويوجد الطالح في كل مكان، وأنّنا أنفسنا خليط من الخير والشر.

وعلى الرُغم من كُلّ المُعاناة التي تسبّب فيها الألمان لي ولأسرتي، إلا أنيّ ما زلت أشعر بصلتي مع تاريخهم وحضارتهم التي استقيتها من أهلي. وقد بذلت قصارى جهدي لإعادة خلق علاقات مع أشخاص ألمانيين محترمين.

في الستينيات ناديت بالترحيب بالشباب الألمان الذين يأتون للعمل في مجتمعنا (كيبوتس) كمُتطوّعين وأيضاً استضافتهم من قبل الأُسر المحلية لمجتمعنا ليكونوا على دراية بالتاريخ الحديث، وذلك على عكس السياسة التي كانت سائدة في ذلك الوقت من رفض أيّ نوع من الاتصال مع الألمان. كما أسّسنا صداقات مع هؤلاء المُتطوّعين وما زلنا نتبادل معهم الزيارات. ونحرص على الحوار المُستمر، ونفعل كلّ ما بوسعنا حتّى نُقويّ العناصر الإيجابيّة والمضادة للفاشية في أوروبا التي تُناهض وتُحارب حركات الرجعيّة.

بطبيعة الحال، لا يُمكن أبداً أن ننسى الستّة ملايين يهوديّ - بما فيهم 1.5 مليون طفل برئ – الذين قد تعذّبوا وماتوا على أيدي النازيين ومُعاونيهم. رُبّما نستطيع أن نُصالح أنفسنا مع ألمانيا الحديثة اليوم، لكن

كيف يمكنُنا أن ننسى الساعات الحالكة الظلام في التاريخ، وفي أوقات يأسنا الكبير، وكُنّا بمفردنا نُعاني ونموت، بلا مساعدة من الجهات التي يسمونها "القوى الدولية"؟ وحتى لو سامحنا هؤلاء الذين يعيشون في ألمانيا اليوم، فماذا عن هؤلاء الذين عذّبوا اليهود وغيرهم من الضحايا وقتلوهم بسبب الحقد النازي؟

فإن كان الغُفران معناه نبذ الكراهية العمياء ومشاعر الانتقام - نعم فهذا مُمكن في هذه الحالة. لكن هل هذا يقضي بالعفو عن الوُحوش الذين ارتكبوا أبشع المجازر في تاريخ البشريّة؟

رُبمّا أغفر لهؤلاء الذين وقفوا بجانبي غير قادرين أن يفعلوا شيئا، أو لهؤلاء الذين لم يجرؤوا على التكلم جهراً. فأنا أعلم مقدار الشجاعة التي يحتاجها الأمر لكي تقف أمام السُلطات وتُعارض ذلك الرُعب الذي يفرضه النازيّين. لكني أعلم أيضاً أن الآلاف من الطيبين خاطروا بحياتهم ليساعدوا ويخفون اليهود، عالمين جيّداً أنّهُم يُعرّضون بذلك أنفُسهم وعائلاتهم للخطر.

هل يمكن أن نغفر لهتلر وزمرته؟ ولحُرّاس مُعسكرات الموت؟ ولآمري قوات الـ SS وجنودها؟ وللعاملين مع هتلر في الجستابو Gestapo (الشرطة السريّة النازية)؟ هل يمكن أن نغفر لمنفذي التعذيب والقتل الذين عملوا على تجويع والرش بالرشاشات والخنق بالغازات السامة لمئات آلاف من الرجال والنساء والأطفال العزّل؟

يمكنُني أن أغفر للجنود الذين حاربوا ضدّنا في الحروب حتىّ لو كانت دوافعهم خاطئة... يمكنني أن أغفر لمن حاربوا ليحموا أنفسهم أو للمُطالبة بحقوقهم، حتّى لو تمَّ تضليلهم. لكن ألا توجد حدود للغفران؟

اعتقد أننا نفهم الدافع وراء رفض شاؤول لأن يغفر للنازيين الذين ذبحوا بلا رحمة ستّة ملايين من الرجال والنساء والأطفال اليهود على أنه لم يكن بدافع النقمة أو الكراهية لكن بدافع الخوف من أنّ الغُفران سيكون مرادفاً لعملية تبرئتهم من أفعالهم. وشخص مثل "شاؤول" الذي هو مصمم على ضمان عدم تكرار مثل هذه الفظائع ثانية في المستقبل، يصعب عليه أن يغفر إذا كان

الأمر يتضمن التظاهر من أن محارق اليهود في ألمانيا – الهولوكوست – لم تحدث قط، أو أن الناس المسئولين عنها لم يقترفوا بالحقيقة شرّاً متعمداً وقاسياً زيادة عن اللزوم. فما لم يقرّ الفعلة بشناعة أفعالهم ويطلبوا العفو عما فعلوه من فظائع لن يغفر شاؤول لهم.

طبعاً سنجرح بشدة مشاعر كل من فقد عائلة أو أصدقاء في معسكرات الموت إذا اقترحنا أن نعذر أفعال النازيين الشريرة أو لا نلقي باللائمة عليهم مباشرة. وأعتقد أن هذا سيكون شيئا غير أخلاقيّ. لكنّ الغُفران ليس هو اختلاق الأعذار للناس أو إعفاءهم من اللوم.

"سي أس لويس C. S. Lewis" (وهو كاتب وباحث ايرلندي وقد كتب سلسلة الأطفال الشهيرة نارنيا) كتب في عام 1947 في الوقت الذي بدأت مظاهر الرُعب الكامل للهولوكوست (محارق اليهود في ألمانيا) تظهر للعيان، لأنّه كان على دراية تامّة بأخطار تبرير الناس لأفعالهم الشريرة. فكتب يقول: "هُناك فرق كبير بين الغفران واختلاق الأعذار". وقال إنّ مُعظم الناس لا يرغبون في الاعتراف أنهُم قد ارتكبوا خطأ ما، لذلك فهُم يُبرّرون أفعالهم. ويُحاولون أن يجعلوا الآخرين يقبلون أعذارهم ويلطفون الأجواء ويتّفقون معهم حتى لا يلقون اللوم عليهم بدلاً من أن يطلبوا منهُم الغُفران. ويُكمل لويس قائلاً: "إن لم يكن هناك شخص يجب أن يُلام، فلا يوجد شيء يستحقُّ الغُفران، وهذا معناه أنّ الغُفران واختلاق الأعذار نقيضان." وقال:

> إن الغُفران الحقيقيّ معناه أن تنظر بثبات للخطيّة، تلك الخطية التي ظلّت باقية بلا عذر، رغم شتى أنواع الحجج المختلقة، وأن تراها كما هي عليه من رعب وقذارة وخبث وحقد، وبرغم ذلك أن تتصالح بالكامل مع الشخص الذي أخطأت في حقه. فهذا هو الغُفران وليس سواه.

يُفرّق "بيل جادويك "Bill Chadwick من مدينة "باتون روج" في ولاية لويزيانا بين الغُفران واختلاق الأعذار بوضوح عندما كتب عن موت ابنه "مايكل Michael". لقد شعر "بيل" بحاجة مُلحّة إلى رؤية العدالة تأخذ مجراها في حادث مقتل ابنه، لكنه في النهاية اكتشف أنّ العدالة نفسها لا يُمكن أن تأتي له بالرضا والسلام اللذين يسعى للحصول عليهما، فقد قال:

لقد قُتل ابني "مايكل" في الحال في حادث اِصطدام سيّارة وهو في الحادية والعشرين من عمره في 23 أكتوبر 1993، ولقي صديقه المُقرّب له الذي كان يجلس في المقعد الخلفي مصرعه أيضاً. والسائق الذي كان ثملاً للغاية ويسير بسرعة جنونية لم يُصب سوى بجروح طفيفة؛ وقد تمَّ اِتهامه لاحقاً بجريمتي قتل مروري. وكانت هُناك آثار بسيطة للخمر في دم "مايكل" ولم توجد أي آثار للخمر في دم أعز صديق له.

ودارت عجلات العدالة ببطء. وقد استغرقت المحكمة أكثر من عام لكي تُعد القضّية ضد السائق. وحضرنا جلسة الاستماع جلسة وراء جلسة، وفي كلّ مرّة كان يتمّ تأجيل القضّية. وكانت هناك مُحاولة من قبل محُامي المُتّهم بالتشكيك باختبارات الكحول في الدم. لكنها باءت بالفشل. وأخيراً ألتمس المدعي العام أن يحكم المتهم بالسجن لمدة ستة سنوات على كل جريمة، على أن تنفذ في آن واحد.

اقترحنا على "دائرة تعليق العقوبات على الأحداث" أنّ يخوض المذنب برنامج في مُعسكرات التدريب لعله يكُون نافعاً له - فلم نكن نودُّ أن نُؤذيه، لكننا رأينا أنّه بحاجة لأن يدفع جزاء ما فعله. لكننا تلقّينا خطاباً قبيحاً للغاية من والدته تُخبرنا فيه أننا دفعنا القاضي للحُكم

بأقصى عُقوبة على ابنها. وقالت إنّه لو كان ابنها هو الذي مات بسبب قيادة "مايكل" ما كانت لتحمل في قلبها ضغينة ناحيته. وقلت لها ما لم نرى اِبنها ميّت بالفعل فإنها يجب ألاّ تتكلّم عمّا كانت ستفعله أو لن تفعله.

وتم حبس ابنها لمُدّة ستّة أشهر في مُعسكر تدريبيّ على أن يقضي بقيّة السنوات الستّ مُطلق السراح المشروط. وبعد ستة أشهر عاد اِبنها، أما اِبننا فلم يَعُدْ.

اعتقد أنني كنت مؤمناً أنّ الأمور ستختلف بعدما مَثَل المجُرم أمام العدالة. وأعتقد أنّ هذا هو ما يقصده الناس عندما يتحدّثون عن "حسم القضية". فنظنُّ أننا لو وجدنا من نُلقي عليه اللوم لشعرنا بالراحة، لأن الجاني سينال جزاءه، فستزول آلامنا أخيراً. وقد رأينا حكايات عديدة عن أُناس يبحثون عن تلك الراحة من خلال ذلك القصاص، وقد رأيتهم حتى في البرنامج التلفزيوني الشهير "أوبرا Oprah Winfrey Show" يُطالبون بموت المُجرم كما لو كان موته سيساعدهُم بطريقة ما ويخفف عنهم.

لا شكّ أنّني غاضب من السائق، لكني غاضب من "مايكل" أيضاً. فقد اتّخذ قرارات خاطئة في تلك الليلة، مما عرّض حياته للخطر. شعرت بهذا الغضب حتّى أتمكّن من التكيُّف مع مشاعري. لكني لم أشعر بالراحة حتّى بعد حصول ذلك السائق على العقوبة. كلُّ ما وجدته هو تلك الفجوة الكبيرة في داخلي، ولم يكُن مُمكنا لأيّ شيء أن يسدّها.

وبعد عدّة أشهر، خبطني موضوع الغُفران؛ فما لم أغفر للسائق فلن أجد الراحة التي أنشدها. فالغُفران له يختلف تماماً عن تبرئته من المسؤولية. فما زال السائق مسئولاً عن موت "مايكل"، لكن عليّ أن أغفر له قبل أن أدع الحدث وشأنه. فلا يوجد أبداً أية عقوبة، ومهما كان حجمها، قادرة على جعل كفتي الميزان متعادلة. فكان يلزمني أن أكون مستعداً لأغفر بدون أن تتعادل كفتي الميزان. وعمليّة الغفران هذه لا تتعلّق بالسائق، لكنها تتعلق بي. فكان يجب عليّ أن أمرّ من خلال تلك العمليّة، فلابد أن أتغيّر، بغضّ النظر عمّا فعله.

كان طريق الغُفران طويلا ومؤلما. وكان يلزمني أن أغفر لآخرين غير السائق. كان يجب عليّ أن أغفر لأبني "مايكل"، ولله (الذي سمح بحدوث هذا)، ولنفسي. ولا شكّ أن عدم قُدرتي على الغُفران لنفسي كان أصعب شيء. فقد كانت هناك أوقات كثيرة في حياتي قُمت بتوصيل "مايكل" فيها إلى أماكن عديدة حين كُنت أنا نفسي تحت تأثير الكحوليّات. لكن هذا هو مفتاحي للغُفران - أن أغفر أوّلا لنفسي. فقد كان غضبي على الآخرين هو مجرد اِنعكاس لمخاوفي الداخلية. فألقيت بخطئي على الآخرين – على السائق وعلى المحكمة وعلى الله وعلى "مايكل" - حتّى لا أضطر للنظر إلى نفسي... ولم يحدُث هناك تغيير في نظرتي للآخرين إلى أن تمكّنت من رؤية الجزء الذي أخطأتُ فيه أنا شخصياً.

وهذا ما تعلّمته: إن الراحة التي ننشدها توافينا من الغُفران. وتعتمد هذه الراحة علينا كلياً، لأن القوة اللازمة للغُفران لا تكمن خارجنا بل داخل نفوسنا.

لقد تعلّم والد "مايكل" أكثر الدروس المؤلمة لكل أب وأم. لكن من الضروري أن يتعلمّ هذا الدرس كُلّ منّا أيضاً، مهما كان وضعنا في الحياة. فما لم تفيض قلوبنا بالغُفران لأولئك الذين يسيئون إلينا، فإنّنا لن نجد السلام مهما كان الحقُّ الذي نُطالب به.

أما في المجتمع الذي يشجع على الانتقام، فبالكاد أن تصير المغفرة فكرة مستحبّة. وتدريجياً صارت حتى العقوبات التي تصدرها المحاكم غير كافية ولا تشفي الغليل؛ فيريد الناس أن يشتركوا شخصياً في عملية إنزال العقوبة بالشخص المُسيء إليهم. وقد أخذت العديد من الولايات بتقديم تشريعات تعرض على أسر الضحايا حق الحضور والتفرج عند تنفيذ حكم الإعدام. ومع ذلك، يظهر أن تلك الأسر لا تحصل أبداً على السلام الذي تنشده. وعطشهم لرؤية الآخرين يتألمون بالعنف نفسه الذي آذاهم شخصياً لا يرتوي أبداً. وبدلاً من شفاء جروحهم، فإنّ رغبتهم في الانتقام تتركهم مُشوّشين ومملوءين سخطاً.

إنّ الغُفران هو ليس التغاضي عن الخطأ. ففي بعض الحالات يكون موضوع "الغُفران والنسيان" ليس فقط مُستحيلاً فحسب، لكنّه قد يكون شيء غير أخلاقيّ. فكيف يمُكن لأيّ شخص أن ينسى ابنه؟ ويمكننا أن نفهم جيداً سبب حصول المرء على مشاعر الألم والسخط والغضب، وقد تكون ضروريّة أيضاً، لكن يجب أن تثمر هذه المشاعر الاشتياق إلى المُصالحة.

الفصل السابع

الغُفران حينما تكون المصالحة مستحيلة

قد يكون رفض المُسامحة أسوأ بكثير من القتل، لأنّ القتل قد يكون بدافع لحظات من سعير الغضب، بينما المُسامحة هي اختيار بارد ومتروٍّ من القلب.

قول من
جورج ماكدونالد George Macdonald
قسيس اسكتلندي وشاعر وكاتب
وقد ألهم الكثير من الكتاب المشهورين الذين جاءوا من بعده

عندما اختُطفت ابنة "ماريتا جيكر Mariетta Jaeger" البالغة سبع سنوات من خيمتهم أثناء رحلة تخييم في ولاية مونتانا كان ردُّ فعل الأم الأوّل هو الغضب. فقالت:

> كُنت أغلي من الحقد ومستميتة على الانتقام. فحتّى لو تمَّ إرجاع بنتي "سوزي" الآن حيّة وبحالة جيدّة لقتلت ذلك الرجل في الحال على ما فعله بابنتي، هذا ما قُلته لزوجي وما كنت أعنيه فعلاً بكلّ جُزء من كياني.

يمكننا أن نفهم ونعذر "ماريتا" على رد فعلها هذا، إلا أنها سرعان ما أدركت أنّه لا يمُكن لأيّ مقدار من الغضب أن يُعيد لها بنتها. فلم تكن مستعدّة لأن تغفر لخاطف بنتها: فقد ظلّت تؤكّد لنفسها لفترة طويلة، أنّها لو غفرت له فهذا معناه خيانة لبنتها وصفح عن أفعال الخاطف. لكنها شعرت في أعماق نفسها أن غُفرانها له هو الطريق الوحيد لكي تتدارك الموقف في ظل فقدانها لبنتها.

وفي حالة اليأس هذه، بدأت تُصلّي، لا من أجل عودة بنتها سالمة فحسب، لكن أيضاً من أجل الخاطف. وطوال الأسابيع والشهور التي تلت الاختطاف أصبحت صلواتها لأجل عودة "سوزي" أصعب وأصعب؛ لكن الغريب أن صلواتها للخاطف أصبحت أسهل وأكثر جديّة. فهي ببساطة أرادت أن تتعرف على الشخص الذي أخذ طفلتها المحبوبة. وشعرت برغبة كبيرة في التحدُّث معه وجهاً لوجه.

وفي أحدى الليالي، وبعد مُضيّ عام بالضبط (وبالدقيقة نفسها) على اختطاف بنتها تلقّت "ماريتا" مُكالمة تليفونيّة. وكان صاحب تلك المكالمة هو المُختطف. وشعرت "ماريتا" بالخوف - فقد كان صوته بغيضا ومخيفا كاللص - لكنها تعجبت من نفسها كيف كان لها مشاعر شفقة حقيقية لذلك الرجل في الجهة الثانية من خط التلفون. ولاحظت أنه صار يهدأ حينما صارت هي تهدأ. وتحدّثا معاً لمُدّة ساعة.

ولحُسن الحظ، استطاعت "ماريتا" أن تسجّل المُكالمة. وعلى الرُغم من مُضيّ شهور على تعقُّب مكتب التحقيقات الفيدرالية له وقبضهم عليه، إلا أنّها منذ تلك اللحظة علمت أن "سوزي" لن ترجع البيت مرّة أُخرى. فقد عثر المُحقّقون على عظام ظهر طفلة صغيرة بين متعلقات المُختطف

اِقترح قانون الولاية عقوبة الإعدام، إلاّ أن "ماريتا" لم ترغب في الانتقام. فكتبت: "في ذلك الوقت كنت قد أدركت أخيراً أن العدالة لا تدور حول موضوع إنزال العقوبات بل حول الإصلاح والشفاء." وطالبت عوضاً عن ذلك أن يُقدَم لقاتل "سوزي" عقوبة السجن المؤبد مصحوبة برعاية طبيب نفسيّ بدلا من الإعدام. إلا أنّ ذلك الشاب المُعذّب أقدم على الانتحار، غير أن الأم "ماريتا" لم تندم قط على عرضها بتقديم المساعدة له. ولم تنته جهودها لفعل السلام هناك. واليوم، هي عضو في مجموعة تعمل للمصالحة بين القتلة وعائلات الضحايا. وكان ذلك جزء من أسلوب شفائها، وشفاء الآخرين.

تُظهر لنا تجربة "ماريتا" أنّ كل القصص لا تنتهي نهاية سعيدة. فحتّى عندما نتمكّن من مُواجهة الشخص الذي يجب أن نغفر له فربما هو لا يشعر بالندم على ما فعله. وفي بعض الأحيان قد لا يتم العثور على القاتل، أو قد لا يعود شريك الحياة الذي هرب، فهل يكون الغُفران في هذه الحالات مُمكناً أيضاً؟

تخلّص "دانيال كولمان Daniel Coleman" من حياته لأنّه لم يستطع التعايُش مع فكرة مقتل أخته "فرانسِس". إلا أنّ تلك المأساة المُزدوجة غيّرت حياة الأم "آن Anne". فاليوم تساعد وتُقدّم "آن" المشورة للرجال المحكُوم عليهم بالإعدام في ولاية ديلاوير Delaware. وبدأ عملها عندما تقابلت لأوّل مرّة مع "بربارة لويس" وهي سيّدة حُكم على ابنها بالإعدام. وبعد زيارتها مع "بربارة" لإبن "بربارة" المسجون بدأتا معاً في زيارة السجناء الآخرين أيضاً. فتقول:

هكذا تقابلت مع "بيلي". فلم يكن هناك من يزوره، وكان وحيداً للغاية. وأبكي دائماً عندما أتذكر كيف علقوه؛ وكيف وقّفوه عند المشنقة في وسط العواصف على الأقلّ لمُدّة خمس عشرة دقيقة انتظاراً لوصول

الشهود. وبعدما تم إعدامه، خارت عزيمتي وقلت مع نفسي: "لا أقوى على الاستمرار بعد."

ثم تعرّفت على صبي صغير يُدعى مرقس، كان أبوه قد حُكم عليه بالإعدام أيضاً. ولم يكن له أم وكان قد فقد أختيه أيضاً، وكان يُعاني من الكوابيس لأنه على وشك أن يفقد والده أيضاً.

أنا أعلم أنني إذا كرهت شخصاً فلن يعيد ذلك ابنتي إليّ. وحالياً، لست متأكدة من أنني سأجد الشخص الذي قتلها يوماً ما. غير أنَّ المرء بحاجة ماسة إلى إيجاد شفاء ما، وأنا وجدته وهو عن طريق مساعدة كل الناس في العالم من الذين يشبهون "بربارة" و "مرقس". لأن أعطتني مساعدتهم شفاءً أكثر ممّا كُنت أتخيّل.

فقدت "جينيفر Jennifer"، وهي من معارفي لمدة طويلة - خطيبها الذي تركها قبل عشرة أيام من موعد زفافهما ولم تره ثانية مطلقا. كانا مخطوبين لأكثر من عام، وعلى الرُغم من أنّ علاقتهما عانت من اضطرابات من وقت لآخر، إلاّ أنهّا كانت واثقة من أنّه سيأتي الوقت الذي ستنجح فيه علاقتهما. فقد أحبته كثيراً، وكانت فرحانة جداً. وكانت وقتئذ قد تخرّجت من كُليّة التمريض، وشارفت على الانتهاء من إعداد ثوب الزفاف. عندئذ تحطّم كُلّ شيء. فاسمعوها تقول:

كشف لي خطيبي أنّه لم يكُن أميناً معي، وأنّ هناك أشياء من ماضيه ما زالت تعوّق زواجنا. والأسوأ من ذلك، أنّه أراد أن يهرب من كُلّ شيء بدلاً من مُواجهة ماضيه. أما أنا فتحطمتُ. وبكيت لأيام طويلة وانسحق قلبي لسنين. ولُمت نفسي على عدم أمانته، وشعرت بالبغض والاستياء.

وبعد مُضيّ ثلاثين عاماً ما زالت "جينيفر" عازبة، لكنها لم تعد تشعر بالبغض. وقد غفرت لخطيبها بصورة كاملة ومن صميم قلبها بالرغم من أنها غير قادرة على إخباره بذلك لأنها لا تعلم أين هو. وعلى الرغم من أنّها في بعض الأحيان مازالت تشعر بالألم نتيجة للزواج الذي لم يتم، وحُزنا على الحُب الذي ضاع، فقد وجدتْ إشباعا حقيقيا في مساعدة وخدمة الآخرين من كبار السن

والمرضى والحوامل والأطفال المعُاقين. يعلم البعض من أصدقائها بماضيها. ولكونها فرحانة ومليئة همّة نراها مشغولة جدّاً ولا تملك في قلبها أي شفقة على الذات. فتقول:

> باعتباري عازبة، أستطيع أن أقوم بالكثير من الأمور التي لا تقدر أبداً عليها الزوجة المشغولة أو الأم. فأنا يُمكنني أن أُقدّم خدماتي أينما كانت هناك حاجة لي وفي أيّ مكان كان. وقد صار في وسعي رعاية ومحبة أطفال أكثر بكثير مما لو كنتُ متزوجة.

تركت "جولي Julie" مع زوجها وأولادها أحد مجتمعات كنيستنا – مجتمعات برودرهوف المسيحية Bruderhof - بعدما واجهتْ زوجها بتحرشه بابنتهما. وبالرغم من الصدمة التي أصابتها وأيضاً الهلع، جراء ما فعله إلا أنها كانت لا تزال تحبه وتأمل في أن يتمكنوا من إعادة بناء علاقتهم كأسرة من جديد خارج مجتمعنا. وللأسف لم تنجح الأمور بهذا الأسلوب، فتقول:

> كنتُ مُنهارة وعلى مشارف اليأس. فقد أصبح زوجي شخصاً غريباً عنّي، ولم أتمكّن فيما بعد من العَيش معه لأن الحياة تحولت إلى جحيم، فقد قضينا عاماً كاملاً بعيداً عن مجتمعنا كنيستنا الذي يعيش حياة مسيحية مشتركة، آملين أن نُنقذ زواجنا وأسرتنا لكن بلا فائدة، فقد ضاع كُلّ شيء.
>
> فتركتُه وعُدتُ إلى مجتمعنا المسيحي، غاضبة ومجروحة وكارهة ومرفوضة وبائسة ومهانة ومذلولة - ولا يمكن لكل هذه الصفات أن تُعبّر عمّا شعرت به وقتئذ. واضطرمت معركة في قلبي. وأردت أن أغفر، لكني في الوقت نفسه كنت أريد أن أوجه له ضربات الانتقام، وكلما تذكرتُ زوجته الجديدة (فقد طلّقني وتزوج من أخرى) كانت مشاعري تشتعل بالغضب تجاهه. لم تكُن معركة سهلة فهي ما تزال مُستمرة، في الوقت الذي أشهد فيه تلك الآثار السيئة تنعكس على أولادنا الخمسة جراء إساءة المعاملة وجراء الانفصال.

كانت معركتي هي أنني كنتُ بالحقيقة راغبة لأغفر له: فقد أردت فعلاً أن أغفر له من صميم قلبي. فقد علمت أنّ هذا هو واجبي. لكن كيف يمُكنني أن أغفر له وهو لا يُبدي أيّ ندم؟ وماذا سيكون شكل التعبير العمليّ لغُفراني؟

لم أرغب في التغاضي عمّا فعله بأيّة طريقة، وقد أخبرته أنّه لا يمُكنني أن أسمح لأولادي أن يظلّوا معه فيما بعد، لكني قررت أنّ أكثر إجراء مفيد يسعني عمله وقتذاك كان قبول الطلاق.

ومنذ ذلك الحين اكتشفت أن غُفراني له لم يكن شيء أعمله مرة واحدة فقط. إذ كان يجب أن أؤكّد على غُفراني مرّة ومرّات. وأحياناً أشك فيما إذا أنا كنت فعلاً قد غفرت له، وأصارع مع هذا الأمر أيضاً، لكنني، وفي نهاية المطاف، أعلم أنّ كلّ الأخطاء التي ارتكبها زوجي في حقّي لا يمكنُ لها أن تُدمّرني.

توضح قصة "جولي" نقطة هامة ألا وهي أنّه رغم أنّ زوجها السابق لم يُظهر أيّ شعور بالندم، إلاّ أنها ما زالت تغفر له. وإن لم تفعل فستظلُّ هي مُقيدة بمشاعر البغض نحوه، وسيستمر هو في التأثير على أفكارها ومشاعرها. وستظلُّ مجروحة بما فعله لها ولأولادها طُوال الحياة. لكن من خلال طرح غضبها وحقدها خارجاً، ومن خلال إدراكها أن سعير العذاب بالبغض ما هو إلا طاقة مهدورة، حصلت آنذاك على قوة جديدة لتداوم في محبة أولادها وخدمتهم وأيضاً قوة تقويها لتستمر في الحياة.

الفصل الثامن

الغُفران في الحياة اليومية

لو أحببتَ، ولو قليلا، لأصبحت عرضة للخطر. لأنه لا يوجد مكان خارج الفردوس تكون فيه آمنا تماما من كل المخاطر والإنزعاج الذي تسببه لك المحبة سوى الجحيم.

قول من
سي أس لويس C. S. Lewis
وهو كاتب وباحث ايرلندي
وقد كتب سلسلة الأطفال الشهيرة نارنيا

قَدّ لا يواجه الكثير منّا أبداً موقفاً يحتّم علينا أن نغفر لقاتل أو لمُغتصب جنسي. لكننا نواجه جميعاً يومياً حاجتنا لأن نغفر لشريك حياة أو لأحد الأبناء أو لصديق أو لزميل عمل - وربما عشرات المرّات في يوم واحد. وهذا العمل ليس أقل شأنا من الأول.

يُظهر "وليام بليك William Blake" في قصيدته "شجرة السمّ" كيف أن أصغر ضغينة يمُكن لها أن تنمو وتُزهر وتحمل ثمارا قاتلة. فيقول:

> غضبت من صديقي:
> وأخبرتُه بغضبي، فزال غضبي.
> غضبت من عدوّي:

ولم أخبره، فكبر الغضب

وغذيته بالخوف،
صباحاً ومساءً... بدموعي؛
وراعيته بالابتسامات،
وبالخداع الناعم.

فنما نهاراً وليلاً،
حتى أثمر تُفّاحة لامعة؛
ورآها عدوّي تلمع،
وعلم أنها لي.

وعندما أرخى الليل سدوله،
دخل إلى حديقتي وسرقها:
في الصباح أرى عدوُّي
مُتنعماً تحت الشجرة.

إنّ الضغائن والظنون الصغيرة في الحياة اليوميّة هي بذور شجرة الشاعر "بليك". فلو سقطت تلك البذور في قلوب خصبة، فإنّها ستنمو، وإذا كان هناك من يرعاها ويُغذّيها فستكون لها حياتها الخاصة. رُبّما تكون صغيرة وتبدو كما لو كانت تافهة يصعب على المرء أن يراها في البداية، لكن برغم ذلك يجب القضاء عليها. يُظهر لنا "بليك" في أوّل سطرين سهولة القيام بذلك: فالذي نحتاجه هو أن نُواجه مشاعر الغضب لدينا في الحال ونقلعها من جذورها قبل أن تنمو.

كان عليَّ أن أتعلم ألاّ أحمل ضغينة في حياتي منذ نعومة أظفاري. فقد كانت طفولتي سعيدة في معظمها لكن كان لي نصيبي أيضاً في التجارب السيّئة. لقد كُنت طفلاً مريضاً. فقد أخبر الأطباء والدتي بعدما وُلدتُ بفترة قصيرة أنني

أُعاني من مرض "استسقاء الرأس" (ماء على المُخ) ولن أتمكّن من السير على قدميّ أبداً. وعلى الرُّغم من أنّه لم تثبُت صحّة ذلك - فبدأت المشي عند سن الثانية والنصف - إلاّ أنّ تسمية "أبو رأس الماء" اِلتصقت بي. وتسبّب هذا في ألم كبير لوالديَ وأثرّ عليّ أنا أيضاً.

كُنت وحيداً. فقد كان هناك سبعة أطفال في عائلتنا غير أنّني كنتُ الصبيّ الوحيد. بالإضافة إلى أن والدي كان بعيداً عنّا لمدة ثلاث سنوات وأنا كنت ما أزال في عمر خمس سنوات. لهذا كنت أتوق للأصدقاء.

وعندما بلغت السادسة، كان يجب أن أُزيل ورماً كبيراً من ساقي. وقد كانت هذه أوّل عملية من عمليات كثيرة أجريتها خلال الثلاثة عقود التي تلت. واستمرّت العملية لمُدّة ساعتين، وظلّ خطر الإصابة بأيّ ميكروب يداهمني لأيام لأن المُضادّات الحيويّة لم تكُن قد ظهرت بعد، حيث كُنّا نعيش في الغابات النائية في دولة باراجواي. وبعد تقطيب الجرح الذي كان في ساقي، عُدت مباشرة إلى منزلي سيراً على الأقدام. ولم يُقدّم أحد لي أية عكازة أو ما إلى ذلك، ولا نستطيع بالطبع التحدث عن تقديم عربة لتوصيلي إلى البيت. ولا أزال أرى وجه والدي المصدُوم عندما دخلتُ إلى المنزل بعرجي، على الرغم من أنّه لم ينطق بكلمة.

وحالهما حال أي والدين، فقد كان والداي يصارعان في مشاعرهما عندما نتعرض نحن الأولاد إلى أية إساءة في المعاملة من قِبل معلم أو أي شخص بالغ آخر. لكنهُما أصرّا على أنّ السبيل الوحيد للتغلُّب على مثل هذه الإهانات الصغيرة في الحياة هو الغُفران.

وعندما بلغت الرابعة عشرة، انتقلنا إلى الولايات المتحدة. وكان التغيير من قرية في براري أمريكا الجنوبية إلى مدرسة ثانوية حكومية في ولاية نيويورك هائلاً. كانت اللغة الإنجليزية بالتأكيد عائقاً لي، لكنني كُنت خجولاً أيضاً لأنّني شعرت أنني غريب الأطوار ومتخلف. فكل طالب سعى ليكسب تقدير زميله أو زميلته – ولم يرد أحد أن يكون وحيداً – وهذا ما أردت أن أفعله أنا أيضا. فقد حاولتُ يائساً أن أكون مقبولاً بينهم، وخرجت عن طوري لأرضي زملائي الجدد. وفي البداية تمَّ الاستهزاء بي وبصفة خاصّة من صبي معروف عنه أنّه شقي. فأخذتُ أردّ عليه بالعداء، ولما كان كل أصدقائي مُهاجرين مثلي بدأنا

نسخر منهُ بلا رحمة، وكُنّا نتحدّث بالألمانية فيما بيننا لأنّنا نعلم أنّه لم يكُن يفهم كلمة واحدة منها. وقادتنا العداوة إلى أكثر من مجرد أنوف تدمي.

وفي العشرينات من عُمري صار عليّ أن أتعامل مرة ثانية مع مشاعر رفض وإقصاء الآخرين. فقد تعمّقت علاقتي بشابّة وخطبتها لكن فجأة وفي أحد الأيام جافتني وتركتني. صارعت في داخلي لأغفر لها، ولأغفر لنفسي أيضاً، ولاسيما لأنني لم تكُن لديّ أيّة فكرة عن سبب إنهاءها لهذه العلاقة بيننا. (أقنعت نفسي أنّ الأمور ساءت بيننا بسببي، لأنّي شعرت أنني غير مُناسب لها على الإطلاق.) وبعد عدّة سنوات تحطّمت آمالي ثانية عندما أنهت شابّة أخرى علاقتها بي بعد عدّة شهور. فأنهار العالم من حولي عندما حاولت أن أفهم سبب حدوث ذلك. ما الخطأ الذي ارتكبته؟

واستغرق الأمر منّي وقتا طويلا لكي أتغلّب على جُرحي، وأعيد بناء ثقتي بنفسي. لكن أبي أكّد لي أنّه في الوقت المُناسب سأعثر على الإنسانة المُناسبة، وقد ثبت صحّة ما قاله عندما وجدتُ زوجتي "فيرينا" بعد عدّة سنوات.

من الأسهل أن نغفر للغريب من أن نغفر لشخص نعرفه ونثق به. وهذا ما يجعل الأمر عسيراً جداً في أن ينجح المرء على تخطي محنة خيانة وغدر أصدقاء عزيزين له أو زملاء عمل مقربين. فهُم يعرفون أفكارنا ونقاط ضعفنا وصفاتنا - وهُم عندما ينقلبون علينا فإنّنا من دون شكّ سندوخ ونتعذب. لقد مرّ "بيتر Pete"، وهو صديق لي من فيرجينيا، بتجربة مماثلة، فيقول:

> كان عليَّ تصفية حساباتي مع شريكي الذي شاركته لمُدّة عشر سنوات قبل الانتقال لولاية أخرى وترك مصلحة عملي. كان الأمر عسيراً بسبب حقيقة أنّه وزوجته كانا قريبين جداً منّي؛ فقد كُنّا أصدقاء على مدار الخمسة عشرة سنة الماضية.
>
> لم يكن في وسع أحد أن يتخيل الكيفية المُنصفة التي كنت أنوي فيها توزيع حصص مصلحتنا. فلم أكن أبغي أن أكون عادلا وحسب، بل وكريما أيضاً. فلم أبغِ أن يكون هناك شيء ما عالق في ضميري. فأتيت بتقسيم يُعطي نصف الأرباح لغاية اليوم الذي تركت فيه المصلحة،

وتركت لهم النصف الآخر، مع جميع الأشغال التي كانت قائمة آنذاك، ومع جميع الأسهم وجميع أمنياتي الطيبة لهم بدوام التوفيق في المصلحة. بيد أنّ كليهما رأيا الأمر كُلّه بطريقة مُختلفة، وتوقّفا عن التحدُّث معي من اليوم الذي أخطرتُهما فيه بذلك. ولسوء الحظ كُنت قد أخطرتهما بذلك قبل شهرين من التحويل الذي اتسم بأنه كان طويل وصامت ووحيد تتخلله كلمات وعبارات الغضب فقط.

ولم نتمكن من توقيع أية اتفاقية حتى عند قدوم موعد تركي للمصلحة. فقد أتى كلّ منّا بمحامٍ مما عكّر المياه بيننا. أما أنا فكنت أود أن يكون هناك مصدر خارجي ليحكُم في العرض الذي قدمته، لكنهم أبعدوا الشخص المُحكِّم وطلبوا النصيحة من محُاسب عملنا معه لمُدّة سبع سنوات. ولا أعلم ماذا جرى، لكنه سرعان ما فقد حياديته وبدأ يعمل ضدّي.

تطلّب الأمر كثيرا من العُروض والعروض المُضادّة، حتىّ نصل إلى اتفاق. وقد أصرّوا على أنهم لا يتمكنون من إرسال الشيك لي بالبريد قبل 31 ديسمبر على الرُّغم من أنه تمّ اتخاذ القرار على دفع المبلغ في بداية شهر ديسمبر. وفيما بعد علمت أن هذا التأخير جعلني لا استحقُّ سوى نصف مكاسبنا عن السنة كلّها - رُغم أنني لم أتلقّ نصيبي من الأرباح إلا في شهر يونيو. وانتهى بي الأمر أنني دفعت مبلغ 50000 دولار للضرائب. كنُت غاضبا للغاية ولم أتمكّن من النوم لأيّام. فقد شعرتُ أن صديقي والمحُاسب قد خاناني كلياً. وشعرت أنهُما قد تآمرا عليّ لكي يسحقوني.

كان عليّ أن أبذل مجهودا كبيرا حتّى أغفر لهمُ، لكني وجدت القُوّة لأفعل ذلك. ثم أدركت أنني بحاجة إلى الكتابة إليهما لأطلب منهُما الغُفران أيضاً. وشعرت براحة كبيرة عندما أغلقت الظرف ووضعت الخطاب في البريد. لقد كنُت بحاجة إلى الحُريّة من مشاعر الغضب بغضّ النظر عن ردّهما.

وبعد مُضيّ شهر اتّصلت بي صديقة ممّن نصحتني بضرورة مُسامحتهم لتسألني إذا كنت قد تمكّنت من فعل هذا أم لا. فأخبرتها بما

> فعلت فأجابت: "لقد أحسستُ أنك سامحته؛ إذ أنّني قد لاحظت عليه (على الطرف الآخر) كذلك وكأنّ حملاً ثقيلاً قد أُزيل من عليه فعلاً".

لسوء الحظّ أنّ خيانة الأصدقاء أو الزملاء أمر معروف في كل الأوساط. لقد كان أبي معروفاً بُقدرته على التشجيع والنصح بصفته راعي كنسي في حركتنا المسيحية برودرهوف Bruderhof. فأينما ذهب كان الناس يودُّون التحدُّث معه. فكان للعديد منهم أعباء ثقيلة في صدورهم يبغون طرحها عنهم، في حين أحتاج غيرهم إلى من يستمع إليهم ليس إلا. لكن تلك الأشياء نفسها من التي جعلت بعض الناس يُحبُّونه، كانت تُلقي من ناحية أخرى بذور الحسد في قلوب الآخرين تجاهه.

لقد عانى أبي من مُشكلة في كليته في الفترة التي وُلدتُ فيها، وزادت هذه المشكلة بتقدمه في العمر. فالحياة في دولة بارغواي كانت قاسية؛ فقد انتشرت الأمراض، وأدّت التوترات في مجتمع كنيستنا إلى جعل الصراع من أجل البقاء أصعب. وقد ثقلت على أبي أحمال مسئولية القيادة بشكل غير مسبوق. ففي إحدى المرات، وبعد عّدة أسابيع من الضعف الجسديّ المُستمر، أخبره الأطبّاء أنّه لم يعُد لديه سوى أربعين ساعة فقط ليعيشها. وتحسباً من حدوث ما هو أسوأ، استدعى مجتمع الكنيسة كلّه إلى جواره على فراش المرض، وشجّعهم حتىّ يظلُّوا أقوياء وثابتين أمام تلك الظروف القاسية التي يعيشون فيها. وسلّم مسئولياته كشيخ كنيسة إلى ثلاثة رجال، وكان أحدهما هو زوج أخته.

تماثل أبي للشفاء وتغيرت الأمور وبدلاً من أن يعيد الرجال الثلاثة قيادة الرعية له أخبروه أن أيّام قيادته قد انتهتْ وولّتْ؛ إذ قد أعلن الطبيب أن حالته الصحية ضعيفة جداً ولا تسمح له بتحمُّل مطالب مهمة صعبة كهذه. وقالوا أن السبب الرئيسيّ وراء ذلك هو "عدم الاستقرار النفسي" الذي أظهره في أوج مرضه عندما حلم بأحلام غريبة وهلوسات.

قرّر أبي ألاّ يُحارب هذا القرار، وبدأ العمل في إرساليتّنا الصغيرة في المدرسة والمُستشفى، لأنّه ببساطة لم يكُن من الرعاة المُستعدّين لفرض إرادته على الآخرين مطلقا.

والديّ المؤلف - هايني آرنولد وأنا ماري

وعلى الرُّغم من أنّ والدايّ لم يُدركا الأمر في وقته، إلاّ أن هذا التغيُّر في الأحداث لم يكُن من باب المصادفة. فقد جرى إعدادها في محاولة متعمدة لتنحيته عن عمله الذي كرّس حياته له. وفي الواقع، كان اقتراح الطبيب أن يأخذ والدي راحة إضافية لمجرد بضعة أسابيع، لكن القادة الجُدد غيّروا كلامه لخدمة أهدافهم. (ولم نعرف السبب الحقيقي وراء الهلوسات التي كانت تحدث لأبي إلا بعد مضي ثلاثين عاماً حين اكتشف الأمر طبيب آخر، وشرح لنا أنّها كانت تحدث كآثار جانبيّة لعلاج البروميد البدائي الذي كان يستخدمه هناك) ولم نشعر أبداً نحن أولاده بأيّة مرارة بغض أو اِمتعاض من جانبه تجاههم.

ولم يمرّ وقت طويل حتى ظهرتْ مُشكلات جديدة في مجتمع كنيستنا. فقد ضمّ والدايَ صوتهما إلى أصوات حفنة من الإخوة والأخوات الآخرين الذين حاولوا أن يحذروا مجتمع كنيستنا بأسره من أنّ أعمال الرحمة الأصيلة قد خنقتها مجموعة من النُظُم والقواعد الخالية من الروح، إلا أنّ كلامهم أسيء فهمه. فتم استبعاد العديد منهُم، بضمنهم أبي، بتُهمة أنّهُم يحاولون عمل انقسام متعمد في الجماعة. وعلى الرُّغم من أّن والدي كان مُزارعا ماهراً (فقد

كان قد درس الزراعة في زيوريخ)، إلاّ أنّه لم يستطع الحصول على عمل من أيّ نوع كان. فالمستوطنون الألمان في بارغواي الذين كانوا يميلون إلى التعاطف مع النازيين، كانوا ينظرون إليه بشكّ، أما البريطانيون والأمريكان المغتربون فكانوا يخشونه لأنّه لمجرد أنه ألماني الجنسيّة. وأخيراً وجد عمل كمُدير مزرعة في مصحّة للجُذام.

في أوائل الأربعينيات لم يكن هُناك علاج لمرض البرص، ولهذا السبب كان عملاً كهذا يُعتبر خطيرا للغاية. ولقد حذّر الكثيرون والدي من العدوى وأخبره أكثر من طبيب أنّ عمله هذا قد يحرمه من رؤية أولاده وزوجته مرّة أخرى. فالعذاب الذي مرّ به يفوق الوصف.

لن أنسى مدى فرحتي في اليوم الذي رجع فيه والدي من مصحّة الجُذام هذه. فلقد قفزت على كتفيه عندما دخل البيت وصحتُ: "عاد أبي!" لكلّ من كان يمرُّ بنا، إلاّ أنّ الجميع قابلونا بنظرات جامدة.

ومضت سنوات قبل أن أكتشف السبب الحقيقيّ وراء رحيل أبي: فقد شعر أن الرعاة الكنسيين لجماعتنا صاروا مُستبدّين جداً، وقمعيين، وباردي القلب. ولما طالبهم بأن يكونوا أكثر رحمة وأوسع صدرا، اتّهموه أنه "عاطفيّ". ومع ذلك لم يكنّ أبي لهم أيّة بغض أو كراهية في قلبه.

في العشرينات من عمري سمعت لأول مرة عن هذه القصص والأحداث من أصدقاء أبي القُدامى. فارتعبت. وتساءلت: "ماذا سيكون ردُّ فعلي إذا تمَّ تنحيتي جانباً بلا مبرر من قبل أصدقائي وزملائي الذين أثق فيهم؟"

وفي عام 1980 عرفتُ الجواب. فقد طلب مني مجُتمع جماعتنا فجأة أن أتنحّى عن دوري كشيخ كنسي، وهي الوظيفة التي عملت بها لمُدّة ما يقرب من عشر سنوات. ولغاية هذا اليوم لست متأكداً تماماً مما حدث. بالتأكيد كان هناك عامل الغيرة نفسه المُقَسّم الذي آذى أهلي قبل أربعين عاماً، لكن في هذه المرّة كان أصدقائي وزملائي وأخواني من أبي وأمي هم الذين انقلبوا ضدّي على الأكثر. فالذين كانوا دائماً يمدحونني ويشجّعونني صاروا فجأة يبحثون عن أخطاء في كُلّ ما فعلته.

وكنتيجة لشعوري بالحيرة والغضب، صارت لدي دوافع للرد على الشر بالشر. لكن هذا التحوُّل حدث في وقت سيّئ لي: إذ توفّت والدتي بمرض

السرطان مجرد قبل أسابيع قليلة، بالإضافة إلى أنني شعرت في ذلك الوقت أنّ مجتمع كنيستنا يحتاجني أكثر من أيّ وقت مضى. وأردت يائساً تحسين ما أقوم به واستعادة مكانتي "الصحيحة". وبطبيعة الحال، فقد رفض أبي أن يُدعّمني في شن حرب مُضادّة على المُجتمع. وذكّرني أنّه في النهاية نحن لسنا مسئولين عمّا يفعله الآخرون بنا - لكننا مسئولين فقط عمّا نفعله نحن بهم.

وبينما كنّا نتحدّث، بدأتُ أدرك أنّني لم أكُن نقّياً وبلا لوم كما كنت أعتقد. ففي أعماقي كنُت أحمل ضغينة تجاه أفراد مُعينين في مجتمع كنيستنا. وكان يجب عليّ أن أطلب منهم الغُفران بدلا من مُحاولة تبرير نفسي. وبمُجرّد أن فعلت هذا، اتخذ صراعي معنى جديدا. فقد شعرت أنّ هناك سدّاً قد انفجر في مكان ما في أعماق فؤادي. فكل الأذية التي كنت أشعر بها سابقاً كانت بسبب تخدش كبريائي وانتفاخي؛ أما الآن، فتحررت وصار بمقدوري أن أسأل نفسي: ما فائدة ذلك على المدى الطويل؟

وبتصميم جديد على تصحيح مسار الأشياء وتحمُّل مسؤولية شخصية لتلك التشنجات التي حدثت، ذهبت وزوجتي إلى أُناس شعرنا أننّا آذيناهم في الماضي وطلبنا منهم السماح. وبينما كنا نذهب من واحد لآخر شعرنا أن حملا أخذ ينزاح عن قلوبنا تدريجياً.

كانت تلك السنة سنة مُؤلمة جداً لي ولزوجتي، لكنها كانت سنة هامّة أيضاً. إذ أنّها أهّلتنا للمسؤوليّات التي نحملها الآن عن طريق حصولنا على حسٍّ مرهف عند تعاملنا مع الآخرين. كما علّمتنا دروسا لن ننساها أبداً. أوّلاً، لا يهمُّ إن أساء الناس فهمك أو اتهموك ظلماً: لكن المهم هو ألاّ تُسيء أنت فهم الآخرين أو تتّهمهم ظلماً. ثانياً، صحيح أن قرار الصفح عن ذنوب الآخرين يجب أن يكون دائماً نابعاً من القلب، إلا أننا لا نستطيع أن نتغيّر ونقوم بهذه الخطوة بفضل قوتنا البشرية الذاتية. فالقُدرة على الغُفران لا تأتي منّا، لكن من تجربتنا الشخصية أنّ هناك من غفر لنا.

مرّ "جِم و كارولين ويكس Jim and Carolyn Weeks" بأوقات عسيرة في السنة نفسها. فقد وجدا أيضاً أنّ الغُفران هو السبيل الوحيد للمُصالحة. وتكتب "كارولين" قائلة:

في عام 1980 كان قد مرّ على إقامتنا في أحد مجتمعات برودرهوف المسيحية Bruderhof خمس سنوات، وكان لا يزال طموحنا أن نصير أعضاء كاملين في الجماعة الأخوية، لكن اِتّسم ذلك الوقت بالفوضى والتشويش، وعندما لم نستطع فهم الأمور، تضايقنا بسرعة وانتهى بنا الأمر إلى أن نتراجع وننزوي جانباً ونتقوقع على أنفسنا.

وأخيراً قرّرنا أن نطلب ترك المجتمع المسيحي لعدّة أسابيع ليتسنى لنا التعامل مع الموقف كأسرة ومن ثم نجد سلاماً. ولسوء الحظّ أساء الناس فهم طلبنا، وانتهى بنا الأمر بهجر الجماعة كلياً وكأنه رحيل من غير رجعة. فلن أنسى كيف ركبنا السيارة وغادرنا. وجاء بعض الأصدقاء لتوديعنا لكنيّ لم أشعر في داخلي بأيّ شيء سوى بفراغ عظيم.

لأننا قبل أسابيع قليلة فقط كُنّا متأكدين أننا سنصبح أعضاء دائمين في حركة برودرهوف Bruderhof، أما الآن، فقد تحطّمت كلّ أحلامنا. إذ أننا قد ضحّينا بكلّ شيء لكي ننضم لهذا الأسلوب من الحياة. وكوننا كنّا عائلة شابة متزوجة حديثاً فقد جلبنا معنا بعضاً من هدايا زواجنا التي كانت ما تزال آنذاك مغلفة بورق الهدايا. وكنّا قد سلمنا سيارتنا وكل ما نملك إلى مجتمع الكنيسة.

لكن جهزنا مجتمع الكنيسة بشاحنة مملوءة بالأثاث وحتى بسائق خاص لتوصيلنا إلى البيت الجديد في مدينة بولتيمور، إلا أنّنا ومع ذلك كنّا ما نزال نصارع مع أحاسيس رفضهم وتخليهم عنّا. لقد شعرنا أننا فاشلون جدا. وحاولنا أن ننسى كل ذكرياتنا مع المجتمع المسيحي ونرمي أنفسنا بكل ثقلها إلى حياتنا الجديدة في بولتيمور وبعيداً عن المجتمع المسيحي – بالرغم من أنه كانت هناك أوقات سعيدة كثيرة معهم.

واستغرق منّا الأمرّ ثمان سنوات حتّى تعافينا مادياً، وذلك بمُساعدة كبيرة من الأهل والأصدقاء. في ذلك الوقت رضينا بالنصيب وبكل ما حلّ بنا. وحصل كلانا على وظيفة مستقرة، وداوم الأولاد في مدارس جيّدة، وكان لديهم كثير من الأصدقاء، وبقي لنا مجرد بضعة سنين لإكمال تسديد دين رهن العقار. أما داخلياً فكنّا فارغين ووحيدين، وعلمنا أننا نفتقر إلى شيء مهم. وتحدّثنا مبدئياً عن مُحاولة

العودة إلى مجتمعنا المسيحي في برودرهوف لكننا بعد عدّة سنوات تخلّينا عن هذا الأمل بالكامل. لم نُدرك وقتها أنّنا كُنّا بالحقيقة قد بنينا جدارا ضخما من البغض والامتعاض في قلوبنا.

في صباح أحد الأيام وبعد مُضيّ ما يقرُب من عشرة أعوام على رحيلنا، رنّ جرس التليفون في ذات الوقت الذي ركب فيه أولادنا أتوبيس المدرسة. فقد كان على الخط أسرة من المجتمع المسيحي كانت يومئذ في المدينة وأرادت زيارتنا. في البداية كُنّا خائفين، لكننا قُمنا بدعوتهما على العشاء. وعلى الرُغم من أنّنا لم نسوّي جميع مشاعرنا، فلقد كُنّا نعلم أنّنا نشعر بجرح عميق في داخلنا. وغادرت الأسرة ولم نرَ أيّ شخص من الأخوية مرّة أخرى إلاّ بعد مضي عدّة شهور عندما زُرناها لمجُرّد زيارة قصيرة "في عطلة نهاية الأسبوع."

وإذا بنا نعاود الزيارة أثناء عطلة نهاية أسبوع ثانية، وقد دُعينا إلى اجتماع خاص بالأعضاء لشرح موقفنا ولتوضيحه لكي نبقى على الأقل أصدقاء من جديد. وبدأ الاجتماع بشكل جيّد لكن في نهايته صُدمنا من أن الشخص الذي وثقنا فيه بشدّة هو نفسه الشخص الذي لم يفهمنا جيداً. وهو أمر مؤلم. وبعد الاجتماع شعرنا أنه ما زالت هناك رغبة في داخلنا لنكون أصدقاء مع جماعة الأخوية في برودرهوف لكن ليس أكثر من ذلك.

ولك أن تتخيّل دهشتنا، ففي صباح اليوم التالي قاد هذا الرجل وزوجته سيارتهما لمُدّة ساعتين ليرونا وليطلبوا العفو منّا، وعندما سمعنا أنهُما أتيا، لم نكُن راغبين في رؤيتهما في البداية؛ فقد كُنّا خائفين مما سنقوله. ثم وافقنا على مضض على التحدُّث معهُما. ولدهشتنا فقد قابلانا بأذرع مفتوحة وعيون تملأهُا الدموع. وقالا أنهما آسفان، ومدّا لنا أياديهما للمُصافحة كعلامة لتحية السلام. يا لها من لحظة! فبعد كلّ ما فعلا بنا، وبعد عشرة سنوات من الكوابيس، وبعد كُلّ ما مررنا به، كيف يُمكننا يا ترى أن نبدأ من جديد؟ حاولنا التراجُع لكننا لم نستطع. فامتدت أيادينا لهما وسامحناهما... وفي غضون شهور قليلة رجعنا إلى مجتمعنا المسيحي في برودرهوف.

وبمُجرّد عودة "جِم" و"كارولين" إلى بيتهما (أي إلى جماعة الحياة المسيحية المشتركة) لم يمض وقت طويل حتّى شعرا أنّهُما أيضاً لم يكونا خاليين من الذنب. فتكتب "كارولين":

> كان علينا أن نرى الجانب الآخر من القصّة - وهو إنّنا شخصياً كُنّا عنيدين ومُتشبّثين برأينا. وكان كبرياؤنا عائقا أمام المُصالحة.

إن الخلافات التي يكون فيها طرف واحد على حقّ هي معدودة جداً. ففي كبريائنا لا نرى غير أخطاء الآخرين ونتعامى عن أخطاءنا. وإن لم نتعلّم التواضُع، فلا نقدر أن نغفر للآخرين أو أن يُغفر لنا. نعم، هذا مؤلم، لكنه جزء محتوم ولا مفر منه في الحياة. فالمغفرة تمكننا على تجاوز عقبة الألم، حتى لو اِعترفنا بالألم، وتأخذنا إلى الفرح الناتج عن المحبة. ويكتب "م. سكوت بِك M. Scott Peck" (وهو طبيب نفساني أمريكي وكاتب ذو أكثر مبيعات كتب):

> لا يوجد سبيل للعيش بحياة نفيسة ما لم نكُن راغبين لنتألم مرة بعد أخرى، ونتذوق الكآبة واليأس، والخوف والذعر، والأسى والحزن، والغضب، وعذاب المغفرة، والحيرة والشك، والانتقاد والرفض. فالحياة الخالية من التمزّق بالمشاعر لن تكون مجدية لنا فحسب بل للآخرين أيضاً. فلا يمكننا أن نشفي الآخرين بدون الاستعداد لأن يجرحنا الآخرين.

إنّ المُجتمع الحقيقيّ الذي يشمل الأسرة والأصدقاء والزملاء يتطلب منّا أن يظهر بعضنا حقيقة روحهم لبعض. ويمضي "سي أس لويس" إلى ما هو أبعد من ذلك ليقول: "لو أحببتَ، ولو قليلا، لأصبحت عرضة للخطر. لأنه لا يوجد مكان خارج الفردوس تكون فيه آمنا تماما من كل مخاطر المحبة والاِنزعاج الذي تسببه لك سوى الجحيم".

تُظهر لنا قصة "جِم" و"كارولين" أنّ في مقدور الغفران أن يعيد الناس بعضهم إلى بعض. ويمكن للأوقات العصيبة، إذا تمّ التغلب عليها، أن تؤدي إلى محبة أعظم. فهي في مقدورها أن تقوي ولا تضعف رابطة الوحدة والوئام.

الفصل التاسع

الغُفران في الزواج

يسألني الناس ما نصيحتي لزوجين لديهما مُشكلات في علاقتهما، وعادة ما أجيب: صلُّوا واغفروا. وأقول للشباب الذين أتوا من بيوت كثُر فيها العنف: صلُّوا واغفروا. ومرّة أخرى أقول لكلّ أمّ تعيش بمفردها دون أيّ دعم عائلي: صلِّي واغفِري.

قول من
الأم تريزا Mother Teresa
الراهبة العاملة في كالكتا
حائزة على جائزة نوبل للسلام لسنة 1979

إنّ لم يغفر الزوج والزوجة بعضهما لبعض يوميّاً سيتحّول الزواج إلى جحيم حقيقي، وهذا ما رأيته دائماً خلال السنوات العديدة التي قضيتها في المشورة الكنسية للمُتزوّجين. ورأيت أيضاً أنّه يمُكن حلّ أعقد المشكلات بكلمتين بسيطتين ألا وهما: "أنا آسف".

قد يكون من الصعب على الشريك أن يطلب السماح من شريك حياته. إذ يتطلّب الموضوع اتضاعا واعترافاً بالضعف والاقرار بالخطأ. لكن هذا هو ما يُنجّح الزواج ويمنحه الصحة: لأن كلا الشريكين سيعيشان في اِتّضاع مُتبادل مُدركين تماماً اعتمادهما الروحي أحدهما على الآخر.

لقد اِعتاد "ديتريش بونهوفر Dítrích Bonhoeffer" وهو القس الألماني المعروف الذي سجنه هتلر في الثلاثينيات من القرن الماضي بسبب معارضته للنظام النازي - اِعتاد أن يتحدّث مع أعضاء الجماعة الصغيرة التي كّونها عن مدى الحاجة الكبيرة إلى "عيش مشترك في ظِلّ الغُفران"، لأّنه بدون الغُفران لا يمُكن أن تنجح أيّة شركة إنسانية ولاسيما الزواج. وكتب مرّة يقول: "لا تُصرّوا على حقوقكم (...) ولا يلوم بعضكم بعضاً، ولا يحكم أو يدين بعضكم بعضاً، ولا يتصيّد بعضكم أخطاء بعض، لكن ليقبل بعضكم حال بعض كما هو، وليسامح بعضكم بعضاً كل يوم ومن أعماق قلبه."

لم تنقصنا أية فُرصة للغُفران أنا وزوجتي "فيرينا" طوال مدة زواجنا التي استمرّت ثلاثة وخمسين عاماً – ومازالت لحد الآن. فبعد مُضيّ مجرد أسبوع على زفافنا واجهتنا أوّل أزمة في حياتنا. فقد كانت أختي قد صنعت لي، وهي فنّانة، مجموعة جميلة من الأطباق، ودعونا والديّ وأخواتي على العشاء في شقّتنا الجديدة، وكنتُ أنا و"فيرينا" قد قضينا طوال فترة بعد الظهر في إعداد الطعام، وقمت أنا بإعداد مائدة الطعام مُستخدماً الأطباق التي صنعتها أختي. ووصل أهلي وجلسنا لنأكل معاً، لكن فجأة أنهار طرفيّ المنضدة، (فعلى ما يبدو أنّني لم أقُم بضبط المنضدة جيداً)، وغطّى الطعام والصحون المكسورة الأرضيّة، وخرجت زوجتي من الحُجرة والدموع تملأ عينها. ومضت ساعات طويلة قبل أن تتمكّن زوجتي من أن تغفر لي فعلتي هذه، وهي الآن تضحك على تلك الحادثة التي صارت مع الوقت نُكتة عائليّة معروفة.

وأصبح لدينا مع الوقت ثماني أطفال، وكانت هناك أسباب كثيرة للخلافات، وفي كلّ مساء كانت "فيرينا" تقوم بإعطاء حمّام للأطفال وإلباسهم بيجامات نظيفة، ثمّ ينتظروني على الكنبة مع كُتُبهم المُفضّلة. وكُنت عندما أرجع من عملي إلى المنزل، كان الأولاد يرغبون في اللعب معي، وينتهي بنا الأمر في بعض الأحيان إلى أن يقصف بعضنا بعضا بالحشائش في الحديقة، وما زالت "فيرينا" تتذكّر الساعات التي قضتها لتُزيل بُقع الحشيش والطين مع شيء من التذمر!

المؤلف كريستوف آرنولد وزوجته فيرينا

عانى مُعظم أطفالنا من الربو عندما كانوا صغاراً، وكثيراً ما أيقظوننا طوال الليل تقريباً بسبب كُحّتهم وأزيز تنفُّسهم، وهذا كان سببا في كثير من المشكلات بيننا خاصّة عندما كانت "فيرينا" تُذكّرني أنّه عليّ أحيانا أن أترك النوم والذهاب إليهم تماماً مثلها لأطمئنّ عليهم.

وكُنّا أيضاً نختلف كثيراً حول موضوع العمل الذي كنت أقوم به. لأني كُنت أقضي أياما طويلة في الطُرُق بسبب عملي كمندوب مبيعات لدار نشر نملكُها، ولأنّ دار النشر كانت تُغطّي منطقة كبيرة في غرب ولاية نيويورك مثل مدينة بفلو ومدينة روتشيستر ومدينة سيراكيوس، فلقد كُنت أقضي ما بين ستّ إلى ثماني ساعات في قيادة السيارة. لكن لاحقاً، وبعد أن أصبحتَ راعياً كنسياً في مجتمعنا المسيحي برودرهوف Bruderhof، صار عليّ الذهاب كثيراً إلى كندا وأوروبا وحتى أفريقيا. وكثيراً ما كنتُ أدافع عن سفري إلى تلك المناطق

قائلاً إن تلك السفرة "هامّة للغاية". هذا التأكيد لم يكُن يُهدئ كثيراً من روع زوجتي التي كان عليها إعداد حقائب السفر والتكيُّف مع جدول أعمالي المكثّف، وغالباً ما كانت تبقى في البيت مع الأولاد.

ثم يأتي وقت قراءة جريدة الـ "نيويورك تايمز". فبعد قضاء يوم شاق في السياقة، لم أرَ الضرر في الاضطجاع وقراءة الجريدة لبضع دقائق بينما كان أولادي يلعبون حواليّ فرحين، وكنتُ أشدّد على هذا الرأي بقوّة. ولم يسعني رؤية أنانيتي هذه إلا فيما بعد.

وغالباً ما أفكر الآن متسائلاً: كيف كان سينتهي الأمر بزواجنا إذا لم يتعلم أحدنا مسامحة الآخر كل يوم ومنذ البداية؟ ونحن نعلم أن كثير من الأزواج ينامون معاً في الفراش نفسه ويعيشون في البيت نفسه، إلا أنّ بعضهم يظلّ نفسيّاً بعيد عن بعض لمسافة أميال، لأنّهُم قد بنوا جدارا من الكراهية والضغائن بينهُم. وقد تكون الحجارة التي بُني بها هذا الجدار صغيرة للغاية - نسيان عيد الزواج على سبيل المثال، أو مجرد سُوء فهم بسيط، أو اجتماع عمل تمّ تفضيله على نُزهة عائليّة طال اِنتظارها. لكن الحقيقة هي أنّ هذا الانقسام الصغير الذي صنعوه في مقدوره أن يؤدي إلى كارثة.

بإمكاننا إنقاذ كثير من العلاقات الزوجية لو أدركنا فقط أننا - نحن الناس - غير كاملين. فكثيراً ما يفترض الزوجان أنّ العلاقة "الجيّدة" هي العلاقة التي تكون خالية من الجدال والاختلافات. وعندما يعجزان عن تحقيق مثل هذه التطلعات غير الواقعية، تخيب آمالهما، ولا تمضي فترة طويلة حتى تراهما ينفصلان على أساس "عدم الملائمة".

إنّ النقص البشري وعدم كماله يعني أننا سنرتكب أخطاءً وسيجرح بعضنا بعضاً بمعرفة أو بغير معرفة. وقد لمست في حياتي الشخصية أن الحل الوحيد والآمن لإخفاقاتنا هو المغفرة، وسبعين مرة في اليوم إن لزم الأمر. يكتب "سي أس لويس C. S. Lewis" (وهو كاتب وباحث ايرلندي وقد كتب سلسلة الأطفال الشهيرة نارنيا) قائلا:

كيف يمُكننا أن نعفو لاستفزازات الحياة اليوميّة، ونستمرّ في مسامحة الحماة المُتسلّطة والزوج المتأمِّر والزوجة المُتذمّرة والابنة الأنانيّة والابن المخادع؟ أعتقد أنّ الجواب كامن في أنه علينا أنّ نتذكر باستمرار نوع الموقف الذي نريد اتخاذه في حياتنا، وأيضاً أن نعني ما نردده في صلاتنا كل ليلة، "وَاغْفِرْ لَنَا خَطَايَانَا لأَنَّنَا نَحْنُ أَيْضاً نَغْفِرُ لِكُلِّ مَنْ يُذْنِبُ إِلَيْنَا".

"هانز و مارجريت ماير Hans and Margrit Meier" هما أهل زوجتي، وتشهد قصتهما على القوة القديرة التي تحملها المغفرة والموصوفة وصفا رائعا في أحداثها. فقد كان "هانز" رجلا متصلبا في إرادته وتسبّب عناده في افتراقهما وانفصال علاقتهما الزوجية ولأكثر من مرّة. فقد سُجن بعد مُضيّ شهور قليلة على زواجهما في عام 1929 لأنّه رفض الالتحاق بالجيش السويسريّ وذلك لأنّه من المتحمسين للمبدأ المضادّ للحرب والجيش.

وبعد إطلاق سراحه بمدة قصيرة اِفترق الزوجان ثانية. وكان السبب يعود إلى أنّ "مارجريت" قد اكتشفت جماعتنا التي تعيش حياة مسيحية مشتركة وأرادت الانضمام إليها. أما "هانز" ذو التيار الديني والاجتماعي الذي كان له أفكار مُختلفة عن الحياة المسيحية المشتركة لم يرغب في الانضمام. وقد ولدت "مارجريت" طفلهما الأوّل بعد مدة قصيرة من انضمامها، وتوسّلت به للانضمام إلى المجتمع المسيحي لكن "هانز" ليس من النوع الذي يلين عوده بسهولة. ومرّت شهور عديدة قبل أن تفلح في إقناعه بالمجيء. وبعد مُضيّ ثلاثين عاماً وبعد إنجاب أحد عشر طفلا، اِفترقا مرّة أخرى. وكانا في هذه المرّة يعيشان في أمريكا الجنوبيّة، وكان ذلك في عام 1961، وهو وقت اِتسم بالتخبط والاضطراب الروحي لحركة برودرهوف المسيحية. وأصبح "هانز" في قطيعة مع زوجته ومع المجموعة لأنّه لم يستطع رؤية أخطائه ولا مُسامحة الآخرين على أخطائهم في حقّه.

ومن ثم انتقلت "مارجريت" والأطفال إلى مجتمعنا المسيحي في الولايات المتحدة. أمّا "هانز" فاشتغل واستقر في مدينة بوينس آيرِس وبقى فيها طوال الأحد عشر عاماً التي تلت.

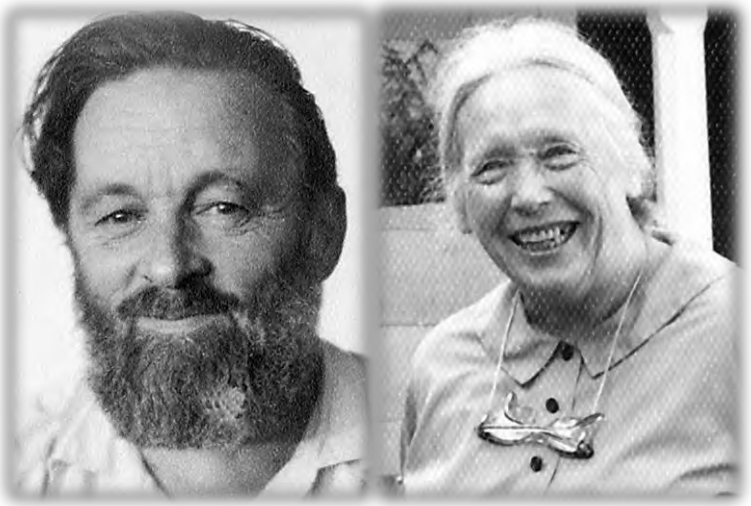

هانز ماير وزوجته مارجريت

لم يكن لديه ما يشير على أنّه يحمل ضغينة، لكن لم يكن هناك أيضاً ما يشير على شفاءه. وتدريجياً نشأ جدار من البغض والامتعاض بينهما وصار يهدد بالانفصال المديد. وعندما تزوّجتُ من "فيرينا" في عام 1966، لم يحضر "هانز" والدها حتى حفل الزّفاف، وبدأ أطفالنا يكبرون بدون جدّ من طرف أمّهم.

في عام 1972 سافرتُ إلى مدينة بوينِس آيرِس مع "أندرياس" – وهو أخٌ لزوجتي "فيرينا" - في مُحاولة لأي نوع من المصالحة مع "هانز"، لكنه لم يُبدِ اهتماماً بذلك – لاسيما في البداية. ولم يَرِدْ شيئاً سوى أن يحكي لنا ما يخصّه من القصّة، وأن يُعلمنا مرّة أخرى بعدد المرّات التي تعرّض فيها للأذى. وفي اليوم الأخير من رحلتنا حدث تغيير. إذ أعلن أنّه سيزورنا في الولايات المتحدة، وأصرّ على أن زيارته ستكون لمُدّة أسبوعين فقط، لا أكثر، وأكّد على حقيقة أنّه سيشتري تذكرة عودة، لكن هذه بالحقيقة كانت البداية.

وعندما تحققت الزيارة فعلاً، خاب ظنُّنا. لأنّ "هانز" ببساطة لم يستطع أن يغفر. فقد كنّا قد بذلنا كل الجهود لنُزيل صعوبات الماضي واعترفنا بذنبنا في الأحداث التي أدّت إلى غُربته الطويلة، لكننا لم نصل لشيء. ففي قرارة

فكره، عرف "هانز" أن الشيء الوحيد الذي يفصل بيننا وبينه هو عدم قُدرته على الغُفران، ومع ذلك لم يقدر على القيام بها.

ثم أتت نُقطة التحوُّل. ففي وسط أحد اجتماعات الأخوية، استجمع عمّي "هانز هيرمان"، الذي كان على مشارف الموت بسبب إصابته بسرطان في الرئة، كلّ قُوتّه، وقام واتّجه نحو "هانز"، وقرع على صدر "هانز" قائلاً: ((يا هانز، التغيير يجب أن يحدث هنا!)) وقد كلّفت هذه الكلمات عمي "هانز هيرمان" جهداً بليغاً لأنّه كان يحصل على أوكسجين أضافي من خلال فتحتي الأنف وبالكاد كان قادراً على التكلم.

وفي تلك اللحظة رفع "هانز" الراية البيضاء. فذاب فتوره وجفافه، وهناك قرّر وقتئذ أن يغفر – ويعود. وبعد أن سافر إلى الأرجنتين لتصفية أعماله، عاد آنذاك لينضم إلى زوجته "مارجريت" وإلى مجتمع الكنيسة، وسرعان ما شهدنا أنه عاد إلى ذات الغيرة المسيحية المتفانية والحيوية كما عهدناه منذ عدّة عقود مضت.

لم يمسّ "هانز" طوال السنوات التي قضاها بعيداً أية امرأة أخرى. وأثناء تلك العقود الطويلة كانت زوجته "مارجريت" تُصلّي يومياً من أجل عودة زوجها. وعلى كل حال، فقد اِنجرح كلاهُما، واستغرق الأمر وقتا طويلا لتلتئم علاقتهما الزوجية وإعادة بناء الثقة أحدهما في الآخر. وبصفتي زوج ابنتهما، لا يسعني إلا أن أشهد أنهُما نجحا أخيرا؛ فقد عاشا معا في محبّة وفرح وكذلك مع أولادهما وأحفادهما إلى أن توفتْ "مارجريت" بعد ستة عشرة عاماً من ذلك الوقت.

السؤال المطروح هو أننا حتى لو غفرنا لِمَن قد جرَحَنا كثيراً، أليس من الطبيعي أن نظلّ ناقمين عليهم جراء ما فعلوه بنا؟ هذا سؤال صعب، لكن ربما يتعلق الموضوع بالمشكلة التي فينا من أن نظرتنا البشرية تميل تجاه العدالة أكثر من المغفرة. فالغُفران أكثر من مُجرّد عدالة مثلما وجده "هانز" و "مارجريت". إنه نعمة إلهية. وهذا قد يبدو أمرا غير منطقيّ وغبيّ في نظر الذين لا يمُكنهم قبول الغفران.

تبرهن لنا قصة أهل زوجتي أنه بالغفران والمسامحة يمكن شفاء المشاكل الزوجية وحتى الفراق والانفصال الزوجي الطويل الأمد. لكن هل من الممكن للزواج الذي دمرته الخيانة الزوجية أو التعامل الوحشي أن يتمّ إصلاحه وشفاءه بالكامل؟ من السهل أن نقول لا، لكن وفقاً لخبرتي يمُكن أن يتغيّر معُظم الناس، إذا أعطيناهم الوقت الكافي، والتحفيز، والدعم الاجتماعي والمادي. فالمحبّة تُصالح وتغفر. وحتّى لو حتّمت الظروف عليهم انفصالا مؤقّتا إلاّ أنّ الحب الوفي هو السبيل الجدير الوحيد للشفاء ولمّ شمل العائلة من جديد. أما الذين يُطلِّقون ويتزوجون ثانية، فهُم يُغلقون بذلك الباب أمام أيّة فُرصة للمُصالحة في المستقبل.

قد يستغرق الصدع في الثقة بسبب الخيانة الزوجيّة سنوات للشفاء بالتأكيد. ففي البداية قد يكون من المُهمّ للزوجين أن يعيشا مُنفصلين، ويحصلا على مشورة من مُتخصّصين، أو مساعدة أقل رسمية، وفي ظلّ إرشاد شخص يثق كلاهُما فيه. ولابد أن يكونا راغبَين في العمل على إعادة بناء ثقتهما حتىّ يستعيدا زواجهما.

تزامنت بداية كتابتي لهذا الكتاب مع تقديمي للمشورة لزوجين انهار زواجهما بسبب الخيانة الزوجية. فقد تزوج "ايد و كارولEd and Carol " منذ تسع سنوات. وقد عانى "ايد" من مشكلات في إدمان الكحوليات حتى قبل زواجه، ممّا تسبّب في كثير من التوترات في زواجهما مُنذ البداية. وعلى الرُّغم من أنّهُما كانا يعيشان تحت سقف واحد، إلا أن أحدهما ابتعد نفسياً عن الآخر أكثر فأكثر. وبدأ "ايد" علاقة سريّة مع جارته بعد مضي بضع سنوات من زواجهما. ورأت "كارول" نفسها تشعر بالغمّ والكآبة أكثر فأكثر، غير أنّها لم تعرف سبب ذلك.

كان "ايد" و "كارول" قد انضما إلى أحد مجتمعات برودرهوف المسيحية للحياة المشتركة في التسعينيات. وبعد أيّام معدودة من مجيئهما أخبر "ايد" زوجته بعلاقته مع جارتهما. فلم يتح له ضميره المُذنب الشعور بالسلام، ووجد نفسه لا يستطيع إخفاء هذا السر أكثر من ذلك. أما "كارول" فصُعِقت. فقد

كان في داخلها إحساس بوجود شيء غير صحيح مُنذ زمن طويل، لكنها لم تكُن تتخيّل أن تكون مخدُوعة بهذا الشكل. وأخبرت "ايد" في انفعالها - المفهوم - أنّ زواجهما انتهى ولن تغفر له أبداً.

لم يكن من الصعب التعاطُف مع مشاعرها، لكني علمت منذ البداية أنّه إن لم تتمكّن من الغُفران لـ "ايد" فلن تُشفى جراحاتها العميقة التي تسبب "ايد" فيها. واقترحتُ عليها أنها إذا سلّمتْ نفسها فريسة إلى دوامة الشعور بالهزيمة والانخداع، فسيؤدي ذلك بدوره إلى جَرِّ أحدهما بعيداً عن الآخر أكثر فأكثر، وأيضاً سيؤدي إلى استبعاد إمكانية رجعتهما ثانية معاً وإلى الأبد.

وفي الوقت نفسه نصحتُهما بالفراق الفوريّ مع ضمان تقديم المشورة لكلا الطرفين. فهذا الانفصال سيساعد "ايد" و"كارول" على التعامل مع مشاعرهما وتصفيتها كل على حِدة. فلم يكن هناك أي "إصلاح سريع" أو "وصفة سريعة"، إذ أنّ هذه العملية مُؤلمة وتتطلّب وقتا طويلا. ويلزمنا هنا بناء العلاقة من جديد ومن القاع إلى السطح.

وتفارق "ايد" و"كارول" لعدّة شهور، لكنهُما كانا يُحرزان تقدُّما عجيباً في علاقتهما أثناء هذه المدة. فشرعوا في البداية بالاتصال فيما بينهما بالتلفون فقط. أما فيما بعد، فأخذت مكالمتهما تنمو وتطول ويطغي عليها طابع الارتياح النفسي، ومن ثم بدءا حتى بتبادل الزيارات. كما توقّف "ايد" عن شرب الخمور، وتدريجياً صار الفرح والتحرر اللذان يتبعان عادة الاعتراف بالذنب يحلّ محل عذاب شهور قضاها وحيداً في تفحّص روحه وقلبه. أما "كارول" فقد مرّت بأوقات عسيرة وصارعت فيها، لكنها كانت شغوفة أن تبدأ من جديد - لا فقط من أجل أولادها وحدهم، الذين بقوا معها عندما رحل "ايد" من المنزل، لكن من أجلّ نفسها هي أيضاً.

وبدأتْ تشعر بحبّ جديد لـ "ايد". والأهم من كل ذلك هو أنهّا رغبت في أن تسامحه كلياً. وبمُجرّد أن أدركت أنّها هي أيضاً قد أخطأت في هذا الأمر، استطاعت أن تتقابل مع "ايد" عند هذا المستوى.

والآن وبعد مُضي عشرة شهور، اجتمع شمل "ايد" و "كارول" مرّة أُخرى. وفي اجتماع عبادة خاص عُقِدَ للاحتفال بإعادة اكتشاف زواجهما، أعلن "ايد" و "كارول" جهاراً، أمام الجماعة الأخوية كلها، عن مغفرتهما أحدهما للآخر.

بعدئذ، وبوجهين باسمين، تبادلا خاتمي زواج جديدين.

لم يكن "إيد" و "كارول" أوّل زوجين أقوم بتقديم المشورة لهما من الذين قد مرّوا من خلال آلام الخيانة الزوجية، ورُبمّا لن يكونا آخر زوجين. ومع ذلك، فأنا على يقين من أن غيرهما من الأزواج الآخرين سيجدون القوة للتغلب على هذه العاصفة، مادام كلا الزوجين راغبَين في السعي إلى تجديد العلاقة بينهما على أساس المغفرة والمحبة المتبادلة.

الفصل العاشر

مسامحة الوالد أو الوالدة

مما لاشك فيه أن الوعي بعدم حاجتنا إلى أن نبقى ضحايا ماضينا فيه تحرُّر كافٍ ويمكِّننا ذلك من تعلُّم طرقا جديدة في التعامل. لكن هناك خطوة أكبر من عملية الإدراك هذه. إنها خطوة المغفرة. فالمغفرة هي محبة تعيشها بين ناس قليلي المحبة. وهي تحرّرنا من دون أن نترجى شيئا بالمقابل.

قول من
هنري ج. م. نووين Henri J. M. Nouwen
وهو قسيس كاثوليكي ألماني
كتب 40 كتابا روحيا

يُصارع كثيرون اليوم ليشفوا من ماضيهم الفظيع. فقد تعرّضت نفوس لا حصر لها لجروح نفسية عميقة بسبب إساءة مُعاملتهم وهم صغار، سواء كانت هذه الإساءة نفسيّة أو بدنيّة أو - أسوأها - جنسيّة. فالبرامج التلفزيونية تبيّن ذلك وتتداول المجلات والصحف هذه المواضيع على صعيد يومي، فيُعرض برنامج تلو الآخر ومن خلاله نُشاهد الناجين من تلك الإساءات يحكون قصصهم المُؤلمة للجماهير المنهكة وغير المُبالية بما يحدث معهم. ومع ذلك، يبدو أنه مهما قاموا به من مكاشفة نفسية فلا يجلب ذلك لهم الشفاء الذي يتوخونه. فكيف يا ترى يمكنهم أن يحصلوا على الشفاء؟

نشأ "رونالد Ronald" في منطقة سلاسل جبال "الأبلاش" في مزرعة بغربي ولاية بنسلفانيا الأمريكية. وكان يسكن ما يقرب من أربعين فردا من الأهل والأقارب في منزل واحد، محاولين انتزاع لقمة العيش عن طريق زراعة أرضهم. واتسمت طُفولته بالوحشية. فكان يتحدث عن أولاد أعمامه الذي حاول بعضهم تعليق بعض، وعن جدّة أطلقت مرة عيارا من الملح الصخري على الأولاد غير المطيعين مستعملة بندقية.

وكان والد "رونالد" شخصا ذكيّا للغاية، وقد ترك المزرعة مع أولاده ورحل إلى جزيرة لونك ايلاند في ولاية نيويورك حيث وجد عملا. وتحسّنت أحواله الماديّة لكن لم تتحسّن علاقاته. فقد تركته زوجته، وصار يضرب أولاده بصفة مُستمرّة وفي بعض الأحيان بقسوة. عاش "رونالد" في خوف دائم من العُنف الذي ينتظره كلّ يوم بعد عودته من المدرسة إلى البيت.

وفي أحد الأيام تعرّض والده لحادث سيّارة فأُصيب بإصابات بالغة. فقد كُسرت رقبته وأُصيب بالشلل من رقبته إلى أسفل. وبعدما كان الطاغية في البيت، أصبح مُقعداً كسيحاً يعتمد بالكامل على عناية الآخرين في احتياجاته اليوميّة.

وبمقاييس شاب لم ينضج تماما، كان لـ "رونالد" كُلُّ الحقّ في هجر أباه. فمن وجهة نظره، لماذا كان يجب عليه أن يبقى معه ويعتني بذلك الرجل الذي أفسد حياته؟ لكن الذي حصل أنه لم يبرح من جواره مطلقا، وعلى الرغم من توافُر العون من القائمين على التمريض والأطباء لحالة والده العاجز، إلاّ أنّ "رونالد" أخذ على عاتقه مسؤولية العناية بأغلب احتياجات والده. فكان يُسدّد احتياجات والده اليوميّة من غسيل وتبديل ملابس ومساعدته في أداء التمارين لأطرافه العاجزة التي ضربته سابقاً بلا رحمة وأحياناً إلى درجة الإغماء. وغالباً ما كان يأخذه للخارج على الكُرسيّ المُتحرّك ويتحدّثان معاً عن المعارك النفسية التي مرّ كلاهما بها، اللذان ما زالا يخوضانها.

فما زالت أشباح الماضي تُهاجم "رونالد" من وقت لآخر، لكنه يقول أنّه أخيراً وجد مقداراً من السلام الذي افتقده بشدّة في طفولته. والأهم من كل شيء آخر، هو أن خدمته الحبّية تشهد عن المغفرة التي يعيشانها كل منهما الآن وعن الشفاء الذي حصلا عليه.

عانى "كارل كايدرلينج Karl Keiderling"، (الذي كان فرداً من أفراد مجتمعات برودرهوف المسيحية Bruderhof الذي كان قد توفي عام 1993)، عانى من طُفولة قاسية. فقد كان الابن الوحيد لعائلة ألمانيّة من الطبقة العاملة. وسادت سنواته الأولى سُحُب الحرب العالميّة الأوُلى والدمار الاقتصاديّ الذي تبعها. ثم ماتت أمّه حين كان في الرابعة من عمره، ولاحقاً ماتت زوجة أبيه حين كان في الرابعة عشرة. وبعد موتها وضع الأب إعلانا في إحدى الصحف مستثنياً فيه ابنه "كارل" عمداً، قائلا: "أرمل لديه ثلاث بنات يبحث عن مُدبّرة منزل مع إمكانيّة الزواج منها في المستقبل".

تقدّم عدد كبير من النساء له، وفي النهاية قررّت إحداهن أن تبقى. ولم تكتشف وجود الصبي في البيت إلا بعد حين، فلم تغفر تماماً لوالد "كارل" إخفائه هذا الأمر عنها. أما طعام "كارل" فكان دائماً أقلّ من طعام بقيةّ أفراد الأسرة، وكثيراً ما كانت تتشكى منه زوجة أبيه.

وكان والد "كارل" صامتاً في وجه قسوة زوجته الجديدة وسلوكها الوحشي، ولم يفعل أيّ شيء ليُدافع به عن ابنه. وبالحقيقة، فقد انضم إليها في عملية إساءة مُعاملة ابنه، وكثيراً ما كان يُضربه بالحزام الجلدي مستخدماً ناحية القفل النُحاسي. وعندما كان "كارل" يحاول أن يحمي نفسه، وجد أن أباه يزداد غضبا ويضربه على رأسه وعلى وجهه.

ترك "كارل" المنزل بمُجرّد أن أُتيحت لهُ الفرُصة. وبعد أن أنجذب إلى الحركة الشبابية التي اجتاحت البلد بعد سنين الحرب، التحق بصفوف المُلحدين، والفوضويين (السّاعين لإلغاء الحكومات والاستبداد)، وغيرهم من الذين أحسّوا بضرورة تغيير العالم، والنضال لضمان عدم عودة المجتمع على ما كان عليه من تعسف أبداً. وصار يتجوّل في أرجاء ألمانيا حتىّ وجد مجتمع برودرهوف للحياة المسيحية المشتركة بطريق الصدفة، عندها شعر في الحال أنّه بين أهله، وقرّر أن يبقى بها. واندمج تماما بكامل الحماس والغيرة في حياة الجماعة، لكن خبرات الطفولة لم تتركه بسلام. فقد شكّلتْ كراهيته لأبيه حملاً ثقيلاً على قلبه. لذلك قرّر أخيراً الذهاب إلى جدّي ايبرهارد آرنولد (الذي كان راعياً روحياً للمجتمع المسيحي آنذاك)، ليفضي أمامه بمكنونات صدره من مشاعر الغضب والكراهية.

كان جوابه عجيباً: فقد اقترح جدي عليه أن يكتب لوالديه رسالة ويطلب منهُما العفو والغفران، لتصحيح الأوقات التي آذى فيها هو مشاعرهما عن عمد، أو سبّب فيها حُزنهما. كما أخبر "كارل" لينظر فقط إلى ذنوبه هو بحق الآخرين، لا إلى ذنوب الآخرين بحقه. تفاجأ "كارل" من جوابه في البداية، لكنه أنتصح بنصيحة جدي أخيراً. واستلم بالفعل والد "كارل" الرسالة، لكن بالرغُم من أنّه لم يعتذر شخصياً عن الأخطاء الفظيعة التي ارتكبها بحق ابنه "كارل"، إلاّ أنّ الأحمال التي كانت تُثقل قلب "كارل" زالت. ولأوّل مرّة في حياته وجد السلام والراحة، وأنهى ذلك الفصل المؤُلم من حياته، ولم يعُد يشتكي ثانية من طفولته أبداً.

تغلبّت "ماري Mary" وهي صديقة لأسرتي على ذكريات مُؤلمة من إساءة المُعاملة بطريقة مماثلة، فتقول:

> توفيتْ أمّي في سن الثانية والأربعين تاركة وراءها أبي وثمانية أطفال تتراوح أعمارُهُم من سنة إلى تسعة عشرة. كان لفقدانها وقعا مأساويا على عائلتنا، فقد أنهار أبي نفسيّاً في الوقت الذي كُنّا فيه بأشد الحاجة إليه. وحاول التحرُّش بي وبأختي، فبدأتُ أمقت وجوده وكرهته.
>
> انتقل والدي إلى منزل آخر، أما أنا فذهبت إلى مدرسة في أوروبا ولم أره ثانية لمُدّة سبعة سنوات. إلا أنني تمسكتُ بمشاعر الكراهية نحوه، وصارت تلك المشاعر تستفحل في داخلي.
>
> عندما رجعت إلى أمريكا الجنوبية، خُطبت لشاب أحببته، كان من أصدقاء الطفولة. وطلب مني أبي أن أقابله، لكني رفضت. فلم أكُن أرغب في مقابلته على الإطلاق. أما خطيبي فقد أصرّ على أن أُقابل والدي. وقال إنّه ليس بإمكاني رفض مثل تلك المُقابلة، وأنّه يجب التجاوُب مع اشتياق والدي للمُصالحة. وقد سبّب لي أمرا كهذا صراعاً حقيقياً، وفي النهاية وافقت.

وتقابلنا مع أبي في مقهى. وقبل أن أقول أيّ شيء توجّه أبي نحوي وطلب مني الغُفران والسماح وهو مكسور الخاطر. فتأثّرت للغاية، وأدركت أنني لا يمُكنني التمسُّك بكراهيّتي لأبي أكثر من ذلك.

يُعدُّ الاعتداء على الأطفال من أصعب الأشياء التي يمُكن غُفرانها في العالم. فالضحيّة دائماً هو طفل بريئ براءة كاملة، في حين أنّ المُعتدي – دائماً شخص بالغ – مُذنب كلياً. فلماذا يغفر البريء للمُذنب؟ هناك أولاد كثيرون من ضحايا إساءة المعاملة يظنون خطأً أن لهم حصة في الذنب: وأنهم تقريباً كان لهم ضلعاً في تسبب هذه الإساءة أو حتى أنهم يستحقونها. وفي الواقع تأتي القُوّة المهيمنة التي يستخدمها المُعتدي على نفسية ضحيته من هذا المبدأ المضلل جداً على أن الضحية قد اشتركت أيضا في الجريمة، حتّى بعد مدة من توقُّف الاعتداء البدنيّ نفسه. وذلك هو جزء من عملية جعل الآخرين ضحايا. لكن، ألا يتضمّن الغُفران للشخص المعتدي لوم الضحايا على جُزء من الحدث؟

بالطبع لا يوجد كلام باطل مثل ذلك السؤال. فالغُفران ضروريّ لأنّ كلّا من الضحيّة والمعتدي - الذي يعرف أحدهما الآخر في مُعظم الحالات - هُم أسرى لظُلمة مُشتركة. وسيظل كلاهما في تلك الظُلمة إلى أن يفتح شخص ما الباب لهما. فالغُفران هو السبيل الوحيد للخروج من تلك المُشكلة، فإذا اختار المُعتدي أن يظلّ في الظلام، فلا يجب أن نتمسّك نحن أيضاً بالظلام. لكننا إن تركنا الباب مفتوحاً، فرُبمّا سيتبعنا المعتدي (أو المعتدية) ويخرج إلى النور.

تعرّضت "كيت Kate" أيضاً، وهي جدّة الآن في أحد مجتمعات برودرهوف المسيحية Bruderhof إلى سوء المُعاملة حينما كانت طفلة تعيش مع أسرتها خارج مجتمع الكنيسة. إلا أنَّها بعدما تواجهت شخصياً مع مشاعرها وأحاسيسها، وجدت أنها يمُكنها التصالحُ مع أمّها التي تغيّر قلبها فيما بعد، فها هي تقول:

ولدتُ في مدينة كنديّة صغيرة بعد الحرب العالميةّ الثانيّة بفترة قصيرة، وكنُت أكبر طفلة في عائلتنا التي كانت ذات أصل روسي وتنتمي إلى طائفة المينونايت.Menonite. كُنّا نعيش وسط مجموعة من الفلاحين في قرية، وكانت الإمكانيّات التي نعيش بها بدائيّة للغاية.

وبعدما باع أبي مزرعتنا، كان عليه أن يذهب إلى المدينة يوميّاً ليعمل. وكانت وظيفة البناء التي يقوم بها أبي تبعد خمسة وعشرين ميلاً، وبعد اثنتي عشرة ساعة من العمل اليومي كان عليه أن يعمل أيضاً في قطعة أرض صغيرة أبقيناها ملكاً لنا.

كُنا أربعة أطفال، كُلُّنا بنات. وكانت هُناك توترات مبطنة في عائلتنا، لكننا لم نكُن نفهم أسبابها. وعندما وُلد أخي بعدي بتسع سنوات، ساءت الأمور. فقد أخذت أمي تتواجد في البيت بصورة أقل فأقل. ولم نفطن على الأمر وقتئذ إلا أنها كانت قد بدأت تشرب الكحوليات.

لم يمض وقتاً طويلاً حتّى بدأت والدة "كيت" تعود إلى المنزل ثملة، وانفصل الوالدان لاحقاً. ولم تكُن هُناك أية حياة عائليّة جديرة بالذكر؛ فقد تمَّ إهمال البيت، ولم تُغسل الملابس قط. وصار كل شيء ملقى على عاتق "كيت"، الفتاة ذات الثلاثة عشرة عاماً. فتردف قائلة:

عندما دخل أخي الصغير جيمي المدرسة، كانت أمّي بالكاد تتواجد في المنزل. ولم أتمكن قط من انجاز فرائضي المدرسيةّ في البيت، ولم أتعلّم الكثير. ورسبت في الصف التاسع وكان عليّ إعادة السنة مرّة أُخرى.

تركت أختاي الأصغر مني البيت، وحصلت كلتاهما على وظيفة، وأجّرا معاً شقّة في المدينة. غير أنني بقيت في المنزل. فكان لابد من وجود شخص ليعتني بالصغار. وبالرغم من رداءة كفاءتي في التدبير المنزلي، إلا أنهم تمكنوا على الأقل من الحصول على شيء يأكلونه.

ازدحمت في مدينتنا المستشفى الخاصة بالمُعاقين ذهنيّاً وبدنيّاً، وبدأت الحكومة في إطلاق المعُاقين الذي لا يحتاجون إلى رعاية كل الوقت

لترعاهم العائلات المحليّة. وكان هذا يُمثّل مصدر دخل جيّد لعائلتنا، وأخذت أمي رجُلين كبار السن وسيدة لترعاهم.

وكان عليّ التخلي عن سريري لأحد الرجال ومُشاركة السيّدة في سرير مزُدوج، ولم تكُن تلك السيّدة تذوق النوم. وعندما أخبرت أمّي أنّني لا أستطيع تحمل الوضع وأنني أريدها أن تُعيدها إلى المستشفى مرّة أخرى لترعاها لم تُوافق أمي. فهي كانت تحصل على صك مالي يأتي لنا كلّ شهر. وقالت إنها ستأتي إلى المنزل في المساء لتُساعدني. وقد جاءت فعلاً، لكن أيّما مجيء! فقد قالت إنّها كانت تعيش في هذه الفوضى بسببي أنا.

في البداية لم أفهم معنى ما قالته، لكني علمت فيما بعد أن والديّ أُرغما على الزواج لأنّ أمّي كانت حبلى بي. وأحياناً كانت تضربني بشدّة، وفي صباح اليوم التالي كانت تسألني عمّن فعل هذا بوجهي، وعندما كُنت أُجيبها أنّها هي التي فعلت، فإذا بها تتّهمني بالكذب.

وتوقفت "كيت" عن الذهاب إلى المدرسة في سن السادسة عشر لكي تُكرّس حياتها بالكامل لرعاية إخوتها. في هذا الوقت تقابلت مع "توم" زوج المستقبل وتزوجا بعد عامين، لكنها ما زالت تتذكّر الذنب الذي شعرت به حين سألتها أمّها مُتّهمة إياها: "من سيقوم بتدبير المنزل هنا؟"، غير أنَّ "كيت" لم تعرها أية أهمية بل انتقلت من المنزل، وسرعان ما كّونت مع توم عائلة خاصة بهما. فتقول:

عند هذه المرحلة أردتُ أن أنسى أمّي. فقد كانت لي عائلتي الصغيرة، فضلاً عن بيت أهل "توم" الذين كانوا يُحبُّون أطفالي جدّاً. وفجأة أرادت أمّي الاتصال بي، لكني خلقت العديد من الأعذار لكي لا أزورها. غير أنني حصلت على شيء من البأس والشجاعة لأردّ لها بعض ما فعلته معي من جميل.

عند ذاك صار طلاق والديّ نهائياً. وتوقّفت أمّي أخيراً عن شُرب الخمر، لأنّها أدركت أنّ ضغط الدم والخمر سيقضيان عليها لا محالة.

ومع ذلك كنت مترددة وغير راغبة في الاتّصال بها. فالمشكلة كانت هي أنني لم أقدر أن أثق بها.

وبعد عدّة سنوات انضم هذان الزوجان إلى المجتمع المسيحي برودرهوف للحياة المسيحية المشتركة. وكانت "كيت" بانتظار طفل آخر، ودعا "توم" والدتها لتشاركها ميلاد الطفل الجديد. فتتابع القول:

شعرتُ أنّي كالمجنونة ولم أعرف ماذا يجب أن أفعل تجاه هذا الأمر. فقلت لـ "توم": "عليك أن تتّصل بها وتخبرها ألاّ تأتي؛ قُل لها ما تشاء. فهذا طفلي أنا، ولا أرغب أن تشاركني هي به". كنُت خشنة للغاية. وفي النهاية ذهبت إلى أحد الرعُاة الروحيين في مجُتمع كنيستنا وقعدنا نتحدث عن الموضوع.

فاستمع إليّ بهدوء ثم قال: "يجب أن تتوصلي إلى سلام ومصالحة مع والدتك". فقلت: "أنت لا تعرف أمّي." فأجاب: "هذا ليس له علاقة بالأمر." في النهاية أتت أمّي. ولم تكن على ما يرام حين وصلت وكانت في حاجة إلى مزيد من الرعايّة. ولم أُسهّل الأمر عليها، لكننّا في النهاية استطعنا أن نتحدّث سويّاً. بعدئذ وفي أثناء زيارتها الأخيرة وقبل أن تذهب إلى بيتها، شعرتُ أنّ هُناك ما تودُّ هي أن تُخبرني به. والأكثر من هذا أنهّا كانت راغبة في الاستماع إلى ما أقوله لها. لقد أرادت علاقة جديدة – وكُنت ألهف عليها أنا أيضاً وقتئذ - وقد كانت مُصمّمة على إزالة أيّة عوائق تقف في طريق إقامة هذه العلاقة. وعند هذه المرحلة أدركتُ أنّها لم تكن عارفة بما كانت تفعله في السابق، وعندما استطعتُ أن أغفر لها شُفينا جميعاً.

عاشت "كيت" في جوّ بيتها المُحِبّ في سلام مع والدتها. فقد استطاعت أن تسامحها عن جراح الماضي البليغة، لكنها أدركت أيضا أمرا هاما مفاده: أنّ أمها لم تكن وحدها التي افتقرت إلى المحبة فحسب بل برودها هي شخصياً لعب أيضاً دوراً في القطيعة التي دامت بينهما سنوات عديدة.

ليست جميع الحالات بشأن القطيعة بين أحد الوالدين وأحد الأبناء بيّنة وخالية من التعقيد. فهُناك قصّة "سوزان" وهي امرأة من كاليفورنيا تأتي من ظروف مُختلفة تماماً. فهي لم تكن قد عانت قط من إساءة معاملة فظيعة من قبل أهلها، لكنها، مثلها مثل "كيت"، كانت تحمل بغضاً وكراهية تجاه والدتها لسنوات طويلة، ولم تبدأ علاقتهما في الشفاء إلا عندما استطاعت أن تغفر لها. فها هي تقول:

كانت علاقتي بأمّي صعبة للغاية مُنذ بداية إدراكي كطفلة. فقد كُنت أخشى من انفجار غضبها ومن لسانها اللاذع والاستهزائي، ولم أكُن أستطيع إرضاءها أبداً. وكنتيجة لذلك، كنت أشعر بالغضب تجاهها – كان غضباً غائراً ومكبوتاً ومخبأً في صدري جعلني أنغلق نفسياً عنها. وأخذتُ أتمسك بآلام الظلم الذي صرتُ أتذكره من أيام طفولتي، وأيضاً الكلام الخشن، وبعض الضربات (التي لا يُستحسن تذكّرها). لذا أصبحتُ أتدمّر بشكل لا يوصف من توبيخها لي، وسرعان ما كنت أحسّ أنني مرفوضة من قِبَلِها.

وبكلمة أخرى، لم يكن لدينا علاقة صريحة ليفتح أحدنا قلبه للآخر. لذلك بدأت أتطلّع إلى الكبار الآخرين الذين في حياتي وبصفة خاصّة المُدرّسين. وكرهتْ أمّي تعلُّقي بالمُدرسين لكنها لم تجد وسيلة تعبر بها عن ذلك. وأتذكّر أنني تمنيت الابتعاد عن عائلتي وأن يتبنّاني أحد المُدرسيّن. وأتذكر أيضاً المشاعر القويةً بعدم الانتماء لتلك العائلة التي كانت تجتاحني بشدّة.

وبسبب لهفتي على أن أحظى برضا أهلي، حاولتُ أن أكون بنتاً "صالحة" وأُخفي مشاعري الحقيقيّة. وحسبما كان مألوفاً فإنّ الأمر لم يساعدني كثيراً حينما لم يُسمح للأولاد بالرد على الكبار أو الإجابة بـ "لا" لطلب الأهل أو الكبار بصورة عامة. إذ كان من المفروض علينا نحن الصغار أن نكون مرئيين لا مسموعين.

وساء الأمر أكثر عندما دخلت سن المراهقة. فقد قمتُ بإيجاد سبل ماكرة أكثر فأكثر لأعبر بها عن غضبي وأفعل ما أشاءه. كما وجدت أيضا

طرقاً ملتوية عديدة مع أمي، التي كانت بالحقيقة بمثابة "انتقام" منها. وأدّت أساليبي هذه بدرجة كبيرة إلى تورطي بعلاقة جنسية مع كاهن أبرشيتنا الذي كان له علاقة اجتماعية مع أهلي.

أخيراً انتهت تلك العلاقة، وتزوّجتُ من رجل آخر، لكني استمرت في خصامي مع أمي. إلا أنَّ العلاقة كانت غريبة فعلاً، لأني كنت ما أزال مستميتة على إرضائها.

ومرّت أمّي بفترات طويلة من الأزمات الجسديّة والنفسيّة على مدار كلّ تلك السنوات، لكني استصعبتُ التعاطُف معها أو إظهار الاهتمام بما يحدث لها. وأخيراً جاء يوم أبديتُ فيه عطفاً وشفقة عليها عندما كانت تخوض برنامجا مُكوّنا من اثنتي عشرة مرحلة للتخلُّص من إدمان الكحول. وقضينا أسبوعا رائعا معاً من مفاتحة القلوب، غير أنَّ الأبواب سرعان ما وُصِدَتْ بيننا بعدئذ. وألقيت اللوم عليها على ما حصل، ولا أعرف الآن سبب ذلك.

في النهاية، تجلى لي الأمر أن شخصيتها الظاهرية التي تبدو قوية وواثقة النفس ومسيطرة كانت مجرد غطاء لشخص مزعزع نفسيّاً تنقصه الثقة بالنفس، حيث كانت تحمل أوجاعاً كثيرة من طفولتها الشخصية غير الآمنة (التي افتقرت إلى المحبة). وقد حاول كل منّا التقرّب من الآخر بأسلوبه الشخصي، غير أنَّ كِلانا كان يخشى من رفض الآخر له، لذلك أمست جهودنا سطحية، حتى في أحسن أحوالها. وأنا مستحية من نفسي لأقول أنني انقطعت عن الكلام معها بعد أسبوعين.

غير أنَّ أحد الأبواب فُتِحَ لي بعد سنوات لاحقة عن طريق صديقة ظلّت تلاحقني لأسمع بعض الأشرطة لوعظات قسيس يدعى "جارلس ستانلي Charles Stanley". وعلى الرُّغم من أنّي لم اسمع عنه من قبل، لكنيّ كنُت أبحث عن إجابات لكثير من تساؤلاتي في الحياة، لهذا استمعت لها مع شيء من التحفظ. ولا أتذكر ما قاله بالضبط، لكني سمعت تماماً ما كُنت أحتاج إلى سماعه في ذلك الوقت. فبدأت عيناي تتفتّح لترى حصتي من الذنب والتقصير في علاقتنا، وحاجتي الماسّة

لأسأل العفو والغفران منها من جهة، وأيضاً تقديمه لها من الجهة الأخرى.

ولم تمرّ مدة طويلة حتى زُرت أهلي. وعندما كنُت بمُفردي مع أمّي طلبت منها أن تغفر لي تصرُّفاتي في الماضي، وأخبرتها أنني من جهتي قد سامحتها أيضاً. كما اعترفت أنني كُنت غاضبة منها طُوال حياتي، حتى لو لم أكن أعرف سبب ذلك. لم تفهم السبب وراء غضبي منها، إلاّ أنّها اعتذرت أيضاً عن الأذى الذي تسبّبت فيه لي. وقالت: "ما حدث قد حدث، ولا يمُكننا تغييره؛ لكن يجب علينا الآن أن نعيش يومنا ونتطلع إلى الغد." كان وقتا لشفاء كلّ منّا. وسمح لي أن أنفتح معها، وأكون صادقة، وأعبّر عن رغبات قلبي في المحبّة، وأن أكون محبوبة على ما أنا عليه وليس على الذي كنت أعتقد أنني باستطاعتي تقديمه.

وبمُجرّد أنهما واجهتا مشاعر الغضب في أحشاء كل منهما، فقد تمكنت كل من "سوزان" وأمها من الشروع في بناء علاقتهما من جديد. وهُناك العديد ممّن لهم قصص مُشابهة لتلك القصّة ومُستمريّن بالمُعاناة بسبب عدم قُدرة الأطراف على الغُفران. فلا يهم من نكون أو ماهية خلفياتنا. فالمهمُّ أن نتعلّم الغُفران. وعندئذ سيمكن للأعاجيب أن تحدث. وستهيج علينا الذكريات المؤلمة من حين لآخر لتُعكّر صفو العلاقات، لكننا لا يمُكننا وللأبد أن نسمح لها أن تُغيّم سماء ما نرتئيه صحيحا لحياتنا. وحتّى عندما يكونُ النسيان مُستحيلاً (وهذا طبيعي)، فيجب أن نُؤمنّ أن الغُفران ليس مُمكناً فحسب، بل وضرورياً أيضاً. وحينما نغفر، فإنّنا سنجد الشفاء الحقيقيّ.

الفصل الحادي عشر

مسـامحة أنفسـنا

بدون تذوق المغفرة شخصياً، والتحرر من عواقب سيئاتنا التي اقترفناها، ستظلّ قدرتنا على العطاء مكبّلة بسبب سيئة واحدة لم نقدر أن نشفى منها مطلقا؛ وسنبقى ضحايا عقباتها للأبد، ولا نختلف كثيراً عن ذلك الغلام الذي يتعلم مهنة السحر على يد ساحر، في قصة "تلميذ الساحر Sorcerer`s apprentice"، لكنه لا يعرف الوصفة السحرية التي تفكّ قيود السحر.

قول من
حنة آرندت Hannah Arendt
منظرة سياسية وباحثة يهودية من أصل ألماني

حتّى لو سامَحَنا الآخرون، فهل يُمكنُنا أن نسامح أنفسنا؟ هناك الكثير من الناس الذين يتعذّبون كثيراً بسبب ما فعلوه شخصياً، لدرجة أنَّهم لا يُؤمنون بعد بإمكانيّة شفائهم، لكن حتّى تلك النفوس المهمومة يمكن لها أن تجد الرجاء.

لقد تحرّر "ديلف فرانشام Delf Fransham"، وهو كندي من طائفة الصحابيين Quakers، من ماضيه عندما بدأ يقوم بأعمال المحبة والرحمة للآخرين، فقد حدثت له، بصورة غير متوقعة، مأساة غيّرت مجرى حياته

مثله مثل كثيرين ممّن ذكرنا قصصهم هنا في هذا الكتاب. إلاّ أن قصتّه مُختلفة إلى حدّ ما: فقد كان الشخص الذي يجب أن يسامحه هو نفسه.

لقد تقابلتُ مع "ديلف" أوّل مرّة عندما كنتُ في الثالثة عشرة من عُمري. فقد انتقل إلى مُجتمع كنيستنا التي تعيش حياة مسيحية مشتركة في أمريكا الجنوبيّة، وبدأ يُعلّم في مدرستنا. وكان هناك أحد عشر طالب في فصلي وكُنا أولادا مُتوحّشين – إذا جاز التعبير، وبعد ايام قليلة من وصوله قررنا أن نضعه تحت الاختبار.

وفي يوم عاديّ في بارغواي حيث الرطوبة العالية والحرارة التي قد تصل إلى حوالي 100 درجة فهرنهايتية عرضنا عليه أن نأخذه في نزهة لنرى مدى صلابته. فمشينا معه لمسافة عشرة كيلومترات على الأقل في وسط الأدغال والبراري والمستنقعات، ومن ثم رجعنا. غير أنّه سقط بمُجرّد رجوعه إلى البيت مُصاباً بضربة شمس.

ظل "ديلف" في السرير لعدّة أيآم، لكننا لم نأبه له. فقد حصلنا بالضبط على ما كنا نرمي إليه: فأثبتنا أنّه "جبان"، لكننّا اندهشنا. لأنه في اليوم الذي عاد وداوم فيه بالمدرسة قال: "أيها الطلاب، دعونا نُجرّب تلك النزهة مرّة أخرى." ولم نُصدّق ما قاله! فسلكنا الطريق نفسه مرّة أخرى لكنه، ومن غير ريب، لم يمرض هذه المرة. وفاز "ديلف" باحترامنا ودخل قلوبنا ووثقنا به منذ تلك اللحظة فصاعداً. وسريعاً ما اكتشفنا أنّه أبعد ما يكون عن الجُبن فهو لاعب رياضيّ موهوب. وأحببنا لعب كرة القدم معه.

وبعد عدّة عقود اكتشفتُ بالصدفة السبب الذي جعل "ديلف" يسكب محبّته وطاقته في عمله بمدرستنا. فقد تبيّن أنهّ كان قد فقد ابنه "نيكولاس" في ظروف مأساويّة للغاية. فقد ولد "نيكولاس" في أبريل 1951 عندما كانت أسرة "فرانشام" تعيش في جورجيا. وبعد عيد الميلاد عام 1952 بفترة قصيرة، كان "نيكولاس" يلعب خارج المنزل عندما جرى نحو الشاحنة التي كان والده "ديلف" يقودها راجعاً بها إلى الخلف نحو الطريق. وكانت الشاحنة محمّلة بخشب للوقود. ولم يرّ "ديلف" ابنه إلاّ بعد فوات الأوان.

كانت زوجته "كاتي" تتحدث آنذاك مع جارتها داخل المنزل، فإذا بـ "ديلف" يدخل وابنهما مُلقى على ذراعَيّه. فتتذكّر قائلة:

لقد خرجتُ عن طوري واحتدمت غضباً، إلاّ أنّ "ديلف" أخذ يهدئني. وأخذنا طفلنا إلى الطبيب في كلاركسفيل، الذي كان أيضاً المحقق الطبي في أسباب الوفيات المشتبه بها، وشرحنا له ما حدث... ومن ناحيتي لم يخطر ببالي مطلقاً أية شكوك لأغفر لزوجي، لأني علمت أنني مقصِّرة القدر نفسه. وحتى أنه لم يلُمني، بل لام نفسه فقط. ووقفنا معاً جنباً إلى جنب في مُواجهة تلك المحنة المحزنة.

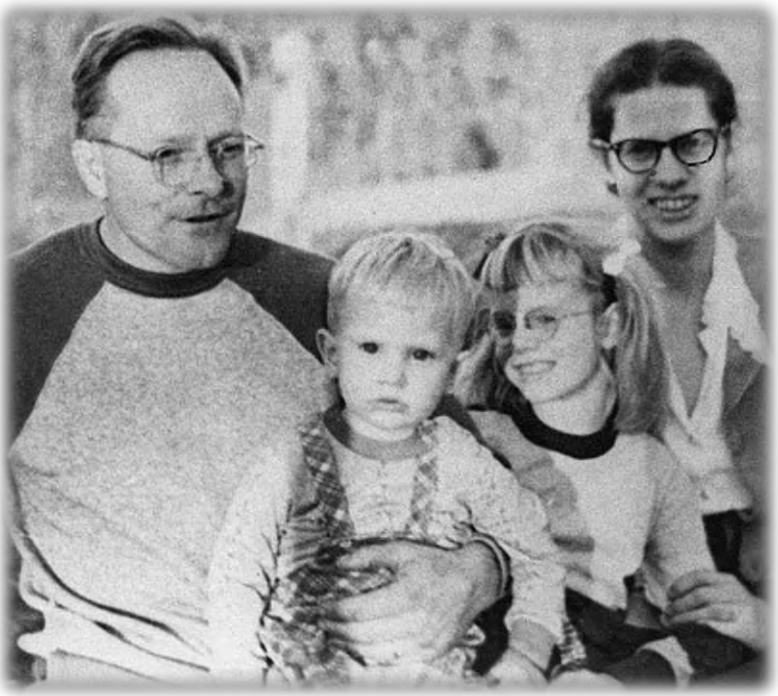

ديلف وأسرته

ولم يستطع "ديلف" أن يغفر لنفسه، وظلّت تلك الحادثة تُلاحقه لسنوات. ومنذ ذلك الوقت غيَّر أسلوبه في الحياة ليخصص وقتاً للأطفال - ذلك الوقت الذي لم يقضِه كفاية مع ابنه الذي قتله. وعندما أتذكر، أرى كيف كُنت أجد

عينيه كثيراً ما تتلألأ بالدموع، ولدي إحساس قوي الآن أنه كان يرى ابنه فينا نحن الطلاب، أو يتخيله وهو يكبر. وكان تصميمه على بذل نفسه للآخرين هو الأسلوب الذي اعتنقه للتكفير عن تلك المأساة التي سبّبها بلا قصد. أنا مُقتنع أنّ هذا الأسلوب حفظه من الاستسلام للشعور بالذنب، وقد استعاد به حياته وأخيراً شعوره بالسلام.

"ديفيد هارفي David Harvey" الذي يبلغ عُمره الآن حوالي الثمانين اِلتَحَقَ بالجيش حين كان في سنِّ السادسة عشرة من عمره قبل انتهاء الحرب العالميّة الثانيّة. وبعد ما قضى بقيّة سنوات الحرب في التدريب، تم نقله إلى أفريقيا ثم ألمانيا ثم إيطاليا وهونك كونك والصين والبحر المتوسط. وفي البداية استمتع بوقته في الجيش وبصفة خاصّة بالصداقات الحميمة التي شعر بها تجاه أصدقائه من الجنود، لكن شيئا ما قد حدث وغيّر حياته للأبد. فيقول:

> قضيتُ جزء من خدمتي في كينيا لأقوم بتنفيذ مهام البوليس وتعقُّب "الإرهابيين." وكنُت أقضي مُعظم الوقت في القيام بدوريات في مناطق الأدغال. وأثناء إحدى هذه الدوريات وقعتُ في حادث فظيع.
>
> فبينما كنّا منبطحين أرضاً ومُنتظرين وصول عصابة من الإرهابيّين، تعرضنا نحن أنفسنا إلى كمين مضاد. فصار كثير من الرمي الذي صاحبته الفوضى والارتباك وأيضاً سوء فهم للأوامر. وانقسمت الدورية إلى نصفين. فسار النصف الذي كنت فيه، في خطٍّ مُستقيم في طريق تسير فيها الحيوانات، في حين كان النصف الثاني يقوم بتمشيط الأحراش في كلا الجانبين. بعدئذ اجتاز النصف الذي كان في الأحراش جماعتي، وكنتيجة لذلك أخذ بعضنا يطلق النيران على بعض. ورأيت الأحراش تنفرج بالجهة المقابلة لي تماماً، فأطلقتُ النار، وأصبت آمر الدورية في رأسه. وتركنا مُهمّتنا وحملنا المُصاب على نقالة مؤقتة مصنوعة يدوياً من خشب الخيزران لمدّة ستة عشرة ساعة عبر الأدغال ليحصل على الرعاية الطبيّة الذي كان في أمس الحاجة إليها.

وفي النهاية عُقِدتْ جلسة قضائية عسكرية للتحقيق في الحادث، إلا أنني خرجت بريئاً تماماً من أي ذنب. أما ضميري، فلم يهبني سلاماً ولا راحة بال، لأنّي لم استطع أن أعرف ماذا حدث لآمر الدورية بالضبط. وبعد أربعة سنوات انتهت مُدّة خدمتي في الجيش ورجعت للحياة المدنيّة.

في البداية وجدتُ الأمر صعبا للغاية. ففي الجيش كان لي رقم لا اسم، وكُنتُ مدرَّباً على الإذعان للأوامر دون مُناقشة، وكنت أعتقد أن أيّ شيء يُطلب مني فهو سليم، الأمر الذي لا يتماشى مع الحياة المدنيّة، لكن عادت الأمور لطبيعتها تدريجياً، وكان لديّ الوقت لأفكّر في ذكريات عملي العسكري، وكان أول ما يخطر في بالي هو أنّني أطلقت النار على صديقي. أين هو يا ترى؟ وكيف كان حاله؟ هل نجا؟ هل ما يزال على قيد الحياة؟

وبعد عدّة سنوات بدأت استفسر وأتحرّى بنفسي عن مكان زميلي وصحّته، لكني لم أصل لشيء. وتقابلت مع زملائي السابقين الذين قصّوا عليّ قصصا متضاربة لما حدث له. وفي عام 1996 وجدتْ زوجتي "ماريون" كتاب يذكر تلك الحادثة بالذات. فاتُصلت بالكاتب الذي ذكر أنّه بالحقيقة لم يتقابل مع زميلي آمر الدورية بالفترة الأخيرة، لكنه سمع أنّه كان يعيش في لندن.

وأدركت أنّني وصلت إلى طريق مسدود آخر. وقرّرت يائساً أن أطلب مُساعدة الصُحُف المحليّة. فنشروا قصّتي وصورتي في طبعة أسبوعيّة لصحيفتهم، وفي غضون 48 ساعة تلقيتُ مُكالمة من الشخص الذي كنتُ أبحث عنه لسنوات.

كان الأمر صعباً عليَّ. فبعد عدّة محُادثات تليفونيةّ، رتبّنا أن نلتقي معاً في منزلي. وفي الوقت المحدّد أتى مُحملًا بالهدايا للرجل الذي أطلق الرصاص عليه! فبسببي كان قد أصيب بشلل نصفي، وكان يجد صُعوبة في المشي وفي تحريك ذراعه. فسألته: هل يمكنك أن تغفر لي؟ فاحتضنني. لأنه كان قد غفر لي سلفاً.

يعيش "جون بلمر John Plummer" حياة هادئة كقسيس ضمن الكنيسة الميثودية Methodist في مدينة فيرجينيا النائمة والهانئة هذه الأيّام، لكن لم تكُن الأمور دائماً هكذا من قبل. فقد عمل "جون" كطيار لطائرة هليكوبتر أثناء حرب فيتنام، وقد ساعد على تنظيم غارة بقنابل النابالم على قرية (ترانج بانج) في عام 1972 – وهو القصف الذي تخلّد لاحقاً عن طريق الصورة التي فازت بجائزة، وهي صورة لإحدى ضحايا ذلك القصف ألا وهي الفتاة الفيتناميّة "فان تاي كيم فَك".

وظلّت تلك الصورة تُطارد "جون" لمدّة أربعة وعشرين سنة، فهي الصُورة التي بالنسبة للكثيرين تُظهر مضمون الحرب: فنرى فيها فتاة تبلغ التاسعة من عُمرها عارية ومحُترقة تصرخ وهي فاتحة ذراعيها وتجري نحو الكاميرا، وفي الصورة تظهر سُحُب الدُخّان السوداء تتصاعد في السماء من خلفها.

ظلّ ضميُره يُعذّبه لمدّة أربع وعشرين عاماً. واستمات على شيء واحد وهو أن يجد تلك الفتاة لكي يُخبرها بأسفه - لكنه لم يستطع إيجادها. فقد كانت فيتنام كبلد بالنسبة له فصلا قد انتهى من حياته، فلم يستطع أن يُقنع نفسه بالذهاب إلى هُناك مرّة أُخرى. حاول أصدقاؤه تهدئته، لأنّه كان قد فعل وقتئذ كُلّ ما كان بوسعه ليتأكد من أن تلك القرية كانت خالية تماماً من المدنيّين، لكنه ومع ذلك لم يحصل على السلام. فأثرّ ذلك عليه حيث فشل زواجُه وأدمن على الخُمور.

وفي مُصادفة لا يمُكن تصديقها، تقابل "جون" مع "كيم" في يوم المحاربين السنوي عام 1996 عند موقع النصب التذكاري الفخم لحرب فيتنام. فقد جاءت "كيم" إلى واشنطن لكي تضع إكليلا من الزّهور للسلام، في حين جاء "جون" مع مجموعة من الطيّارين السابقين الذين كانوا ما يزالون يبحثون عن تحرّرٍ من الماضي وشفاء الروح. وفي الكلمة التي ألقتها "كيم" أمام الجموع قالت

"جون" و "كيم" معا

أنّها لا تشعر بالاستياء مما جرى لها. وعلى الرُّغم من أنّها كانت ما تزال تُعاني كثيرا من الحروق التي تعرّضت لها، لكنّها أرادت أن يعلم الناس أن هناك آخرين غيرها عانوا أكثر منها، فقالت: "خلفي في هذه الصورة، كان هُناك آلاف وآلاف من الناس الذين... ماتوا. وفقدوا أجزاء من أجسادهم. ودُمّرت حياتهم بالكامل، ولم يلتقط أحد صورا لهُم."

استمرّت "كيم" في كلمتها قائلة أنها قد غفرت للرجل الذي ألقى بالقُنبلة على تلك القرية، وعلى الرُّغم من أنّها لا يمُكنها تغيير الماضي، إلا ّأنّها كانت تريد "ترويج السلام". أما "جون"، الذي لم يصدق عينيه، فقد حاول الاندفاع للأمام واختراق الجموع وتمكن من لفت انتباهها قبل أن تغادر المكان كالبرق مع حماية بوليسية. فعرّفها بنفسه على أنّه الطيّار المسئول عن إلقاء تلك

القُنبلة على قريتها منذ أربعة وعشرين عاماً، واستطاعا أن يتحدّثا معاً لدقيقتين قصيرتين. فيخبرنا "حون":

> رأتْ "كيم" مدى حُزني وألمي وكربي... ففتحت ذراعيها لي وعانقتني. ولم أتمكّن من قول أيّ شيء سوى "إنّي آسف، إنّي آسف"- عدة مرات. وفي الوقت نفسه كانت تقول لي: "حسناً، كُلُّ شيء على ما يرام، أغفرُ لك."

تقابل "جون" و "كيم" مرّة أخرى في اليوم نفسه، وأكدت كيم له من جديد أنّها قد غفرت له. ولقد أصبحا مُنذُ تلك اللحظة صديقين حميمين أحدهما يتصل بالآخر تلفونياً باستمرار.

فهل يا ترى حصل "جون" على السلام الذي كان ينشده؟ يقول "جون" نعم حصلت عليه! وعلى الرُغم من أنّ مشاعره لا زالت مُتأثّرة بذكريات الحرب، إلاّ أنّه يشعر أنّه الآن يستطيع أن يغفر لنفسه وأن يضع هذا الحدث خلفه في عداد النسيان ويعيش أياما جديدة.

ويقول "جون" أن لقاءه مع "كيم" وجهاً لوجه بعث فيه الحياة حينما تمكن أن يخبرها أنه تعذّب حقاً بسبب جراحاتها. لكنه ومع ذلك فإنه يؤكد على إنّ الغُفران الذي حصل عليه ما هو إلا نعمة إلهية مجانية قد تلقاها - وليس شيء يُمكن اكتسابه بقُدرته، بالإضافة إلى أنّه لا يستحقُّه. وإجمالاً، فالغفران سرُّ عجيب: فهو لا يستطيع أن يفهم لحد الآن كيف أنّ مُحادثة استمرّتْ لمُدّة دقيقتين، استطاعت أن تُزيل الكابوس الذي استمرّ لمُدّة أربعة وعشرون عاماً معه.

"ريتشارد Richard" وهو مُحارب آخر من حرب فيتنام، رجل وديع وهادئ يحب الأطفال والخيل، لكنه، طوال السنوات الخمس التي عرفته فيها، لاحظت أنّه كان يتعذّب بسبب الأحداث التي كان قد مرّ بها منذ أكثر من عقدين. اسمعه وهو يقول:

هُناك أحداث موت كثيرة تملأ ذهني. فالموت الذي تسبّبت فيه للآخرين – والموت الذي أراده الآخرين لي - لا يُفارقني أبداً! وأمزح كثيراً مع من أعمل معهم. فيجب عليّ أن أفعل ذلك، حتّى أُخفي الألم، وأبعد ذهني عن التفكير في هذا الأمر. فأنا بحاجة لأضحك. فالضحك يبعد الكآبة.

غير أنَّني لستُ قادراً على محبة الآخرين. فيوجد جُزء مفقود من روحي، ويبدو أنّني لن أستعيده أبدا. ولا أعرف إن كان سيكون بمقدوري في يوم من الأيام أن أغفر لنفسي كُلّ الأخطاء التي ارتكبتها. فأنا أعيش يوم بيوم، لكني أشعر بالإعياء طوال الوقت – دائماً منهك. فهل سينتهي هذا يوماً ما؟ لا أعرف كيف؟ فقد كان معي طوال الخمسة وعشرين عاماً الماضية.

غالباً ما يتمّ حثّ أشخاص أمثال "ريتشارد" بمراجعة جهات إعانة رسميّة لطلب المشورة. فينصحوهم مثلاً لإيجاد غيرهم ممن مرّوا بتجارب مماثلة، أو الانضمام إلى مجاميع تدعمهم وتساعدهم معنوياً، أو الدوام على حضور جلسات معالجة جماعية. وقد فعل "ريتشارد" كلّ ذلك؛ وزار أكثر من مُشير وذهب إلى اجتماعات مجموعة المحُاربين في فيتنام لمُدّة عام كامل، لكنه لم يحصُل على السلام بعد.

قد تُساعد هذه الوسائل في العلاج، لكنها في بعض الأحيان تقف عاجزة عن تقديم حل يدوم لفترة طويلة. فيُمكن للطبيب النفسيّ الناجح أن يُشجّعك على الإفصاح عن الأحمال التي تُعاني منها من الماضي، لكن إن لم يتبع هذا ندم واعتراف بالحاجة الشخصيّة إلى الغُفران، فلن يكون الاعتراف مُجديا.

يتذكر "روبرت كولس Robert Coles" الطبيب النفساني من جامعة هارفارد الذائعة الصيت مُحادثة هامّة مع المحللة النفسانية الشهيرة "آنا فرويد Anna Freud" ابنة عالم النفس الشهير "فرويد Freud". ويقول أنه عندما تحدثا مرة بشأن إحدى السيدات المُسنّات وعن تاريخها النفسي الطويل والمليء بالمتاعب، فإذا بها تخرج بنتيجة، قائلة:

سأقول لك شيئا؛ في كل مرة، نودّع هذه السيدة، نحتاج إلى أن نسأل أنفسنا، ليس عن: ماذا نعتقد عن حالتها؟ - فهذا ما نفكر فيه دائماً! – بل: ماذا بالأحرى نوده لها؟ آه، أنا لا أقصد جلسات العلاج النفسي؛ فقد أخذتْ منه كفايتها. فالتحليل النفسي سيحتاج إلى سنين طويلة، على ما أظن، ليقدم لها شيئا لا يضاهي ما يقدمه لها الرب الطيب... لا، فهي لا تتحملنا بعد، حتّى وإن لم تُدرك هي ذلك... فهذه المرأة المسكينة لا تحتاج إلينا بتاتا... فما تحتاجه بالحقيقة هو...الغُفران. فهي بحاجة إلى أن تصنع سلاما مع روحها، وليس التحدُّث معها عن عقلها. فلابد وأن يكون هناك إله في مكان ما قادر على أن يُساعدها ويسمعها ويشفيها... ولا يوجد شكّ في أنّنا غير مُؤهّلين لمساعدتها في هذا المجال!

يا له من أمر هامّ للغاية: فلا يمُكننا أن نجد السلام والشفاء إن لم نتعلّم مُواجهة أخطائنا. ثم إن الاعتراف بالذنب وحده لا يكفي لكي نحصل على الغُفران. ففي بعض الأحيان قد لا يرغب الشخص الذي أخطأنا في حقّه أن يغفر لنا. وفي أحيان أخرى قد لا نرغب نحن في أن نغفر لأنفسنا أو قد لا نستطيع أن نغفر لأنفسنا. وعندئذ يجب أن نلتجئ لله سبحانه تعالى لطلب العون مثلما اقترحته "آنا فرويد". وغالبا ما يوافينا الغفران كنعمة إلهية حينما نعتقد بأننا لا نستحقه. فبفضل هذه النعمة وحدها سنتحرّر لتجعلنا قادرين على مسامحة الآخرين من صميم قلوبنا وكذلك على إلزام أنفسنا بالتغيّر والتوبة.

الفصل الثاني عشر

تحمُّل المسؤولية

عندما ندلي ونعترف بخطايا معينة، فسيموت الإنسان القديم الذي في داخلنا ميتة موجعة ومخزية ومشينة أمام أنظار أخ مؤمن. ولما كان هذا الإذلال عسيراً علينا، فترانا دائماً نحاول تجنبه. غير أنَّه بفضل هذه الآلام الجسدية والمعنوية الموجعة لهذا الذُلّ والهوان أمام الأخ المؤمن فإننا سنشهد... نجاتنا وخلاصنا.

قول من
ديتريش بون هوفر Dietrich Bonhoeffer
قسيس ولاهوتي ألماني شهير
ناضل ضد الحكم النازي وتم إعدامه

من المستحيل أن نغفر للآخرين إن لم ندرك حاجتنا إلى الغُفران. وفي الواقع، فإن مجرد إدراك الموضوع ليس كافيا، لأنه يجب علينا أن نعترف بأخطائنا لشخص آخر.

ويصرف بعض الناس نظرهم عن موضوع "الاعتراف بالخطايا" بحجة أنه طقس كاثوليكي غريب وعقيم. ويقرّ آخرون بأن الاعتراف - سواء كان لقسّ أو لصديق أو لمُشير – قد يكون مفيداً، ويقولون أن المرء يمكنه أن ينال سلام القلب بالسهولة نفسها بدون الاعتراف لشخص آخر. ومع ذلك، فإنّ سلام هؤلاء الناس ليس أكثر ممّا وصفه "تولستوي Tolstoy" حين قال: "إنّه تمويت الروح".

إن الذنب يُقترف في الخفاء، ويفقد قُوّته بمُجرّد السماح له بالخروج إلى النور. لكننا غالبا ما نود إظهار شخصيتنا بأنها قوية وفاضلة، الأمر الذي يؤدي إلى منعنا من الإقرار للآخرين بما قد اقترفناه من سيئات، ونحاول عوضا عن ذلك أن نمحو تلك الأخطاء من الذاكرة، وعندما نفشل في محوها، تجدنا مجرد نحاول تخبئتها. وبفعلتنا هذه فإنّنا لا نقوم إلا بتكديس ذنب على ذنب. فما لم نعترف بما قد اقترفناه من سيئات ونتحمّل مسؤوليّتنا عنها، فسيطفح في داخلنا الشعور بالذنب

ولا توجد علاقة بين شعورنا بالأسف على مّا ارتكبناه وبين موضوع تعذيب النفس. لأن تعذيب النفس يعني أن لا ننظر سوى إلى أنفسنا وضعفنا البشري، حينئذ سيكون حليفنا بالتأكيد هو اليأس والدمار. أما الشعور بالأسف فمعناه الصراخ لله تعالى بدموع الندم، فلا يلزمنا عندئذ سوى ترك الأمر (لصاحب الأمر) لنسمح للمياه العكرة التي مَلَأَتْ قلوبنا أن تتصفّى. وإلاّ فلن يسعنا أبدا رؤية وتنقية الرواسب الدفينة في أي مكان في داخلنا.

يكتب "سيتف Steve" وهو صديق قديم لي نشأ في ضواحي مدينة واشنطن العاصمة في الستينيات قائلا:

> لقد سعيت إلى العديد من الديانات والدراسات النفسيّة من أجل السلام والكمال، غير أنني لم أجد سوى إجابات جُزئيّة... لكن عندما رأيتُ أخيراً مدى فداحة الغلط في حياتي الشخصية، أدركتُ عندئذ الضرورة المُلِحّة وحاجتي إلى التغيّر والتوبة.
>
> وقد حدثت تلك التجربة التي غيّرت موقفي بغير توقُّع في أحد أيام عام 1983 عندما رأيت عدد ذنوبي مثل مجرى فائض. فقد كانت تلك الحقيقة غائبة عنّي بسبب كبريائي ورغبتي في أن أبدو صالحا أمام الآخرين، لكن الآن أخذتْ الصور والذكريات تنساب مني مثل نهر من المرارة والعلقم.
>
> فصار كل ما كنت أبتغيه هو أن أكون متحرّراً منها، وألاّ سيكون في داخلي شيء مُظلم ومختبئ في أعماقي، وأردتُ أن أُصحّح أخطائي على قدر

استطاعتي، فلم يَعُدْ لدي حجج لتبرير ذاتي بإلقاء اللائمة على مرحلة الشباب أو الظروف أو أصدقاء السوء. فقد كُنت أنا شخصيا مسئولاً عمّا فعلت.

وبدأتُ أمسك ورقة بعد ورقة وأسكب فيها كل ما لدي من شائنات وبكامل التفصيل. وأحسست وكأن ملاك التوبة يضرب قلبي بسيفه، فهكذا كانت الآلام. وكتبتُ عشرات الخطابات لأفراد ومُؤسسات تحايلت عليها، أو سرقت منها أو كذبت عليها... وأخيراً شعرت أنّي قد صرت حُرا حقاً.

كتب الروائي الروسي الشهير "دوستويفسكي" في قصّته التي تحمل عنوان "الأخوة كارامازوف" بالفكر نفسه عن رجل اعترف بجريمة قتل أخفاها لعقود طويلة، فقال بعد اعترافه: "أشعر بالفرح والسلام لأوّل مرّة مُنذ سنوات طويلة، فقد صارت السماء في داخل قلبي... والآن يُمكنني أن أجرؤ على محبّة أولادي وتقبيلهُم".

ينتشر الغُفران الحقيقيُّ كالعدوى من شخص لآخر، وهو له القُدرة على اكتساح مجتمع أو مدينة أو منطقة بأكملها. فقد شَهِدَ سُكّان قرية "موتلِنجن Möttlingen" وهي إحدى القُرى التابعة لمنطقة "بلاك فورست Black Forest" بألمانيا، شَهِدَ حركة كهذه في عام 1844، التي قلبتْ حياتهم رأسا على عقب. أما اليوم فهي قرية عادية ولا تختلف عما كانت عليه سابقا قبل حدوث الصحوة فيها. وقد كان راعي كنيستهم آنذاك "يوهان كريستوف بلومهارت Johann Christoph Blumhardt" الذي صار معروفا في أيامنا هذه، كان يتنهّد كثيراً بسبب شعور اللامُبالاة والفتور الذي كان يُغطّي أبرشيته مثل سحابة من الضباب. غير أنّ لوحة كانت مُعلّقة على جدار خشبيّ لأحد المنازل القديمة، تشهد عن صحّة هذه الأحداث العجيبة التي اكتسحت القرية يومها. فقد وجدوا مكتوباً عليها العبارات التالية:

أيها الإنسان: فكر بالآخرة
لا تهزأ بزمن الرحمة
لأن يوم الحساب قريب.

القسيس بلومهارت

وبدأت "الصحوة"، كما يسمونها اليوم، في بداية عام 1843، عندما جاء شابٌّ معروف عنه أنّه مُدمن خمر وعصبيّ المزاج إلى بيت القسيس بلومهارت. وبعد أن ألتمس راجياً مُقابلة القسيس، سُمِح له بالدخول. وأخبر ذلك الشاب القسيس "بلومهارت" أنّه لم يتمكّن من النوم طُوال الأسبوع الماضي، وأنّه يخشى أن يموت إن لم يُبح بما في ضميره. وظلّ "بلومهارت" متحفظاً ومُحترزاً إلى حدّ ما، بيد أنّه بدأ يتقبل مصداقيته حينما رأى كيف أخذ وابل من الذنوب الكبيرة والصغيرة ينهمر كالسيل من قلبه.

وعندها بدأت موجة عجيبة من الندم والتوبة في القرية. فمع حلول 27 يناير 1844 جاء ستّة عشرة شخصا إلى بيت القسيس ليزيحوا عن قلوبهم حمل الخطية. وبعد مُضيّ ثلاثة أيّام ارتفع العدد ليصل إلى خمسة وثلاثين. وبعد عشرة أيام وصل إلى أكثر من مائة وخمسين شخصا. فصار الرجال والنساء من كلِّ القُرى المحيطة يتدفقون إلى قرية موتلِنجن.

ولم يكن لهذا أيّة علاقة بالمشاعر الجيّاشة التي تصاحب "النهضات" الروحيّة، ولا أيّة مُبالغة في الشرور التي كانت قد ارتُكبت في الماضي أو في المجاهرة بالتوبة علنا. فقد كانت تلك الصحوة أكثر وقارا وجديّة بالمقارنة مع هذه الأمور. وكان لها أيضاً انعكاسات على الحياة الواقعية بصورة أعمق. فقد شعر الناس في داخلهم بضرورة قطع علاقتهم بالماضي: فقد وُخِزَتْ قلوبهم، وفجأة تجلّت لهم قباحة حالهم. وحينما استبشعوا الأمر، رأوا، ومن غير لفّ ودوران، بوجوب التخلي عن طرقهم القديمة.

وأهم ما في الموضوع هو أنّ حركة تأثُّر القلوب هذه قد تجاوزت حدّ الكلام والمشاعر وأفرزت تغييرات حياتية ملموسة ومنظورة تعبيراً عن التوبة والمغفرة. فعادت البضائع المسروقة، وتصالح الأعداء، وتمَّ الاعتراف بالخيانات الزوجية والجرائم (من ضمنها وأد الأطفال)، والتأمتْ الزيجات المفككة. كما ابتعد حتّى مُدمني الخمور في البلدة عن الحانات!

إنّ الذين يشككون في مدى أصالة الصحوة التي وقعت في موتِلنجن لا يلزمهم سوى أن ينظروا إلى نتائجها ليدركوا أنها لم تكن وَهْم مُخْتَلَق. وعلى الرغم من سُخرية الناس في البلدات الأخرى، إلاّ أنّ كُلّ القرية كانت قد تأثّرت بتلك الصحوة. ويُذكر أنّه في عام 1883 أي بعد حوالي 40 سنة من تلك الصحوة، كتب "فريدريش سُندل Friedrich Zündel" (وهو كاتب سيرة بلومهارت) ما يلي: "إنّنا لم ننس بعد ما حدث - فحتّى أطفال أولئك التائبين ما يزالون يشعُّون الفرح الغامر الذي عمّ تلك البلدة". أما أنا – كاتب هذا الكتاب - فقد سافرتُ خلال الثلاثين عاما الماضية كثيراً إلى ألمانيا لكي أزور حفيدات "بلومهارت". (فقد تأثر والديّ بكتاباته وسمياني بِاسمهِ تيمّناً به) ويُمكنني أن أشهد أن هناك شيئا من الروح نفسه الذي اكتسح البلدة آنذاك ظلّ على حاله حتّى اليوم.

لكن السؤال المطروح هو: هل تُعتبر الصحوة التي حدثت في قرية موتِلنجن حدثا عرضيا؟ وهل يمكن لحدث كهذا أن يتكرر؟ كان لدى القسيس "بلومهارت" إيمان يجيب على هذه الأسئلة، فيقول: "نعم ممكن"؛ فعلى أيّة حال، لقد بدأ الأمر كُلّه بندامة رجُل واحد فقط.

في كثير من الحالات، يُمكن تصحيح الخطأ بمجرد اعتذار بسيط – مثلاً عندما نفقد صبرنا مع شخص ما أو عندما يفتقر تعاملنا إلى الرأفة. وقد وجدت من خلال خبرتي أنّ أفعالاً متعمدة مثل الغش أو السرقة يجب ألا يتمّ الاعتراف بها فقط، وإنما مواجهة عواقبها أيضاً، إذا كانت هناك رغبة في الحصول على تحرّر كامل. فهناك حالات يكون فيها من الضروريّ عمل أشياء أكثر من مجرد الاعتراف الشخصي.

فكما يكتب اللاهوتي الأمريكي "ستانلي هاوَرفاز Stanley Hauerwas": "لا يمكن لأفراد أيّ مُجتمع مسيحي يعيش حياة مسيحية مشتركة أن يتغاضى بعضهم عن خطايا بعض لأنّهم تعلّموا أنّ الخطية تُمثل تهديداً للمُجتمع الذي يرمي إلى السلام". فلا يرى أفراد المجتمع المسيحي المتّحدين أن مشكلة إخفاء العذاب الذي تسببه ذنوبهم الشخصية هي مشكلة فردية يتحملها الفرد لوحده. ويردف قائلاً: "عندما نُفكّر في أخينا (أو أختنا) في الكنيسة الذي أخطأ بحقنا، فإن إهانة كهذه لم تُرتكب ضدّنا نحن شخصيا فحسب، بل حتى ضدّ مجتمع الكنيسة كلّه".

اختبر "مارك و دبي Mark & Debbie"، وهُما صديقان لي يعيشان الآن في ولاية بنسلفانيا، اختبرا هذا الأمر للمرّة الأُولى في الجماعة المسيحية الصغيرة التي كانا ينتميان إليها بكاليفورنيا في أواخر الثمانينيات، فيقولان:

> على مرّ السنوات، رأينا النتائج المُدمّرة المُترتّبة عن تجاهُلنا للأخطاء أو مُحاولة إخفائها سرّاً. كُنّا نعيش ضمن مُجتمع متشارك صغير في المدينة مع عدد من الناس، أحدهم كان رجُلا أعزب وقع في حُبّ سيدة مُتزوّجة من جماعتنا. وحاول بعضُنا مُعالجة تلك العلاقة من خلال التحدُّث معهما عن قصّتهما الغرامية. ومع ذلك، لم يكن هناك فعلاً أيّة وسيلة لإمكانية "طرح القضية علنا".
>
> ولخشيتنا من أن نبدو في موقف ديّان أو قاسي القلب، اخترنا أن نتعامل مع الأمر باعتبار أنّ تلك العلاقة لم تكُن علاقة خطيرة للغاية، أو على الأقل ليست خطيرة بالدرجة التي تستوجب إثارتها علناً. ألا يرتكب جميعناً أخطاء؟ فمن نحن لندينهم؟ أقنعنا أنفسنا أنّ المُواجهة ستزيد من شعورهما بالعار وأيضاً من إدانتهما لنفسيهما، وكذلك ستديم دوامة الفشل وستغرقهما أكثر. لهذا فلقد تجنبنا الأمر برمّته كما لو كان وباء. والآن، وبعد حين، نرى بأمّ أعيننا أن ما كان يُدعى "عطفاً" هو الذي عمل على ديمومة فشلهما.

> ومع ذلك، فقد ترك الرجل مجتمع جماعتنا أخيراً. وبعد سنتين، تركت المرأة أيضاً - وطلّقت زوجها.

أنّ التجربة التي مرّا بها "مارك" و "دبي" ليست فريدة من نوعها حتماً. فقد تفكك الزواج لأنّ الجميع حاولوا أن يستخفّوا بما كان يحدث فعلاً. إنّ المُواجهة أحياناً تكون ضرورية إذا أردنا الحصول على الغُفران، لأنه ما لم يتواجه أيّ شخص منّا وجهاً لوجه بما قد فعله من خطايا، فإنّه سوف لا يسعى لطلب الغُفران ولا حتّى ينعم بتذوّقه. أما الابتعاد عن مواجهة مَنْ يؤذي الآخرين - لأنّنا نُقنع أنفسنا أن هذا الأمر ليس من شأننا، على سبيل المثال - فيكون أحيانا سبيلا لنعذرهم عما يفعلونه من شائنات. وكما رأينا سلفاً، فإن التغاضي عن الشائنات نقيضٌ لغُفرانها.

يكتب "آلان باتون Alan Paton" الكاتب من دولة جنوب أفريقيا في روايته الشهيرة "فات الوقت يا طائر الفَلَروب Too Late the Phalarope" عن رجل أفريقيّ مُحترم من أصل أوروبي (أي أبيض البشرة)، في زمن التمييز العنصري في دولة جنوب أفريقيا، كان قد اقترف خطيئة "لا تغتفر" ألاّ وهي: الزّنا مع امرأة أفريقية الأصل. ولمّا ظهرت تلك الخطية إلى النور، انهارت أسرته. وتركه أصدقاؤه، واحتقره ورفضه أقرباؤه، ومات والده نتيجة شعوره بالعار. إلاّ أنّ أحد جيرانه عبّر عن حزنه لما حدث فقال:

> يُمكن مُعاقبة المُذنب...لكن أن نعاقب ولا نصلح، فهذا في حدّ ذاته يعتبر من أشدّ الجرائم...فإن أخذ الإنسان على عاتقه القيام بدور الله في العقاب، فيجب عليه أيضاً أن يأخذ على عاتقه تحقيق وعد الله بإصلاح الشخص المُذنب

إنَّ الاعتراف بالخطايا يُمهّد الطريق للغُفران والمُصالحة. وبدونه نظلُّ مُنغلقين كليا في كبريائنا، ويصبح الغفران ليس ممكناً. عندما عاد والد زوجتي

"هانز Hans" إلى مجتمعنا المسيحي بعد قضائه لأحد عشر عاما بعيدا عنه، كتب ما يلي:

> توقّعتُ أن يستقبلوني الناس بالحجارة، لكن لم يحدث أي شيء من هذا القبيل. فقد أتيحت لي كلُّ الفُرص لكي أعبّر بها عن أسئلتي وهواجسي علناً أمام الجماعة، وتحدّث الجميع معي بانفتاح وصراحة. والحقيقة هي أنّ قلبي لم يذُب من الصراحة فقط؛ لكن بالأحرى، من المحّبّة بينهم التي تقاسموا بفضلها المسؤولية والالتزام - وهي محّبة مستعدة لتغفر، لأنّها هي نفسها اختبرت الغُفران.
>
> ولم يكن هناك شيء ليتنازع عليه الناس سوى الشيء الذي فصلنا. وباختصار، جلس كلّ منّا على المقعد نفسه، بمعنى أننا جميعنا كنّا سواسية ولنا الصراع الروحي نفسه. ولم يتم التعامل مع الأمور بمشاعر الإطراء والمداهنات، بل تمَّ الأخذ بنظر الاعتبار حتى أكثر الحقائق المؤلمة بحسب نور المحبة.

تأثّر "هانز" جدا بحبّ مجتمعه له، إلا أنَّ الشيء الذي أطاح بعناده وتصلبه كان استعدادهم في طلب العفو منه عن الأمور التي أخطئوا فيها بحقه.

وتكتب سارّة، وهي أخت أخرى في المسيح في مجتمعنا المسيحي برودرهوف Bruderhof، عن الفرح والتحرّر اللذين غمراها عندما قرّرت أن تنظف سجلاتها القديمة وتبدأ بداية جديدة، فتقول:

> لم أذق طعم النوم والراحة في الليل. فكان هناك شيء يطرق في بالي: كان يلزمني أن أصحّح الأمور! فذهبت إلى بعض من أصدقائي الذين لديّ ثقة فيهم، وأخبرتهم بكل شيء. وقد ساعدني هذا كثيرا جدا، على الرغم من أن ما كان عليّ أن اعترف به هو مُقَزِّزاً للنفس. وفي الأيّام التي تلت، بدأتْ أشياء أخرى تتوارد إلى ذهني، وهناك أيضاً لم أتمكّن من الانتظار. وأتذكّر حينما ركضتُ إليهم لكي أدلو بها. فعندما تقوم بتنظيف جميع

> دفاترك وسجلاتك، تصير حتى أصغر وأدق الأشياء مهمة وتحسّ بضرورة الإدلاء بها. فكان يجب عليّ أن أتخلص من كل شيء صغير يتبادر إلى ذهني. فلم استطع الانتظار.
>
> ولم أكُن أعلم مطلقا بأنّني سأجد مثل هذا الفرح في الاعتراف والتوبة، فقد أصبح قلبي خفيف مثل الريشة أكثر وأكثر.

اكتشفتْ "سارّة"، مثلها مثل الآخرين الذين صمموا على مُواجهة ذنوبهم وطلب الغُفران، اكتشفتْ شعورا رائعا من التحرّر والراحة الروحية. وقد توقّعت أن يرفضها وينتقدها الأعضاء الآخرين في المجتمع المسيحي بشدة بسبب ما ارتكبته في الماضي، وأن يتجنّبوها بالكامل بُمجرّد أن تحكي لهم ما حدث، لكن لدهشتها وجدتهم يُرحّبون بأمانتها ويقبلونها معهم بكل ضعفها. وعندما اعترفت بمسؤوليّتها عن أخطاء الماضي وأعلنت تصميمها على القيام ببداية جديدة، وجدت "سارة" – مثلما يقدر على إيجاده كل واحد منّا – أن الاعتراف يمهد السبيل للمصالحة. فلقد مهّد هذا الاعتراف الطريق أمامها للحُصول على المُصالحة.

الفصل الثالث عشر

إلقاء اللّوم على اللّه

ليس صحيحاً لا أن تُحاول إزالة كلّ الآلام، ولا أن تتحملها متعمداً برباطة جأش. فالمُعاناة يُمكن تسخيرها وتحويلها للخير. وما يجعل الحياة فَرِحة أو تعيسة هو ليس الظروف الخارجية، بل موقفنا الداخلي تجاهها.

قول من
ايبرهارد آرنولد Eberhard Arnold
علامة لاهوتي ألماني ومؤسس حركة برودرهوف المسيحية

عندما نتحدّث عن الغُفران، فإنّنا عادة ما نقصد الأذى الذي تسبب بعضنا فيه لبعض، لكن في بعض المرات يبدو أنّه لا يُوجد من نلومه. ولما كانت المشاعر والانفعالات التي تهيج لدينا في هذه المرات تشابه كثيرا تلك التي تحدث في الحالات التي يوجد فيها طرف مذنب، فلذلك يميل كثيرون منّا – بحقّ أو بغير حقّ – إلى إلقاء اللّوم على الله لأنه جعلنا نتعذب بدون أي سبب واضح أو مبرر. وعندها نمتلئ بالغضب والألم مُتسائلين: "كيف يُمكن لإله رحيم أن يسمح بهذا؟" فهل ترانا نقدر أن "نغفر" لله؟

لا أنوي البحث في مسألة: "هل من العدل أن نلوم الله في مثلّ تلك الظروف أو لا؟" فمن السهل أن نلوم الله ونغفر له حتّى لو كُنّا لا نُؤمن به، لأن ذلك أفضل من مواجهة حالة لا يوجد فيها من نلومه. فالغضب مرحلة مشروعة من الحُزن حتىّ عندما لا يكون هناك هدف واضح لنوجه نحوه غضبنا. فنحن بحاجة إلى التعبير عن غضبنا والتعامل معه، إن كُنّا نرغب

في الحصول على الفُرصة المُناسبة للشفاء وقلب صفحة جديدة.

فهل يُمكن أن نتعلّم إذن أن نغفر لله عندما نراه مسئولاً عن الألم الذي حدث لنا، تماماً مثلما تعلّمنا أن نغفر للآخرين عندما نشعر أنهُم جرحونا؟ إنَّ الحل يكمن في تنمية رغبتنا في التعلُّم من تجاربنا لننمو ولكي ينتج منها شيء إيجابي، وإلاّ سيبدو أنّ الأمر كلّه سلبيّ في حياتنا. فعندما يبدو أنّه لا يوجد سبب لآلامنا، فيجب علينا أن نجد سبباً. وليس من الضروري أن تكون الأزمة مجرد كارثة؛ فيمكنها أن تكون فرصة أيضاً.

فقدت "زوهار جيمبرلن Zohar Chamberlain"، وهي صديقة من كيبوتس كيشور في إسرائيل (كيبوتس هو مجمع تعاوني سكني وعملي متشارك في المصاريف الرئيسية)، فقدتْ ساقها في حادثة حين كانت في السابعة عشر من عمرها. وعلى الرغم من أن "زوهار" لم تجد شخصا لتلومه على ما حدث، وعليه لم تجد شخصا لتغفر له، فقد كانت لا تزال غاضبة بشأن حالها وقد دُمِرَتْ نفسيّا تدميرا كبيرا لأنها فجأة صار عليها أن تتعلم من جديد كيفية القيام بالكثير من الأمور التي كانت في السابق لا تستغرقها ومضة عين لأدائها. فتقول:

> حدث ذلك في صيف عام 1987 عندما كُنت في السابعة عشر من عُمري، وكُنت قد تطوّعت للعمل لمُدّة عام كمُرشدة مع مُنظّمة للشباب في أورشليم. وبعد أربعة أيّام من عملي كان عليّ الاتجاه إلى الشمال، لهذا أخذت حافلة من محطّة حافلات أورشليم المركزيّة. فقد كان هذا أفضل أسلوب للوصول إلى الشمال. ولم أحاول أسلوب الركوب المجاني عن طريق التلويح للسيارات المارّة، أو المغامرة بأي خطر آخر. وإنما ذهبت كمُسافرة عاديّة.
>
> لم يستغرق الأمر سوى دقائق معدودة لكي تتّجه الحافلة إلى شارع "يارمياهو"، ولم تكُن هناك حتى أدنى فرصة أمام السائق ليسرع في سياقته، لكن الطريق كان مليئاً بالمياه والصابون الآتية من تنظيف أحد

المطاعم على جانبي الطريق. ويبدو أنّ السائق ارتكب خطأً وأغلق الفرامل. فظلّت الحافلة تنزلق نحو شاحنة واقفة جانباً. فأصيب ثماني عشر شخصا بجروح، ولقي جندي وفتاة في الخامسة من عُمرها مصرعهما.

ولا أتذكّر أيّ شيء عن الحادث، على الرغم من أنَّ المُسعف الذي شرع بإسعافي على الفور قال أنني بقيت على وعيي. وأتذكّر بعض الأحداث البسيطة في المُستشفى مثل إعطائي رقم بطاقتي الشخصيّة وأرقام التليفونات لكي يُخبروا والديّ، وأيضا عندما قصّوا ملابسي؛ وأتذكر أمّي كذلك وهي في طريقها من غرفة الإفاقة إلى وحدة العناية المُركّزة.

ولم يخبرونني أني خسرتُ ساقي إلا بعدها بيوم. فجاءت أمّي إلى سريري وسألتني إن كنت أعلم ما حدث، فأخبرتها أنّه يوجد عطب ما في رجليّ، لكني لا أستطيع رؤيتهما لأنّي كنت نائمة على ظهري. ولا أتذكّر أنّني أُصبت بصدمة نفسية من جرّائها، وذلك بسبب تأثير شتى أنواع المسكنات لتخفيف الألم. وبقيتُ بوحدة العناية المُركّزة لمُدّة اثني عشر يوماً. وشعرت بالاطمئنان في ذلك المكان على الرُّغم من آلامي الشديدة، لدرجة أنّني لم أستطع رفع رأسي من على وسادتي، وكُنت أعاني من ارتفاع في درجة الحرارة مُعظم الوقت. فقد تمَّت رعايتي بصورة جيدة، ولم يخطر ببالي وقتذاك أنه سيترتب عليّ التعامل مع شيء من هذا القبيل، وكنت محاطة بكل الدعم والرعاية اللطيفة التي كنت أتمناها.

لكن قبل حلول العام اليهوديّ الجديد، انتقلت إلى الجناح الخاص بعلاج التشوُّهات. وقرّروا عند ذاك أنّه لم يكن في الإمكان المُحافظة على ركبتي اليُمنى، وأخبروني أنّه يجب عليّ إجراء عملية ثانية لبتر رجلي فوق الرُكبة مُباشرة. وكان هذا أصعب بكثير من احتمالي، وانفجرت في البكاء عندما أخبرتُ أحد أصدقائي الذي أتى لزيارتي.

كانت عمليّة الشفاء من الجراحة الثانية صعبة للغاية. فقد عانيت كثيراً ولاسيما من آلام وهمية في الرجل المفقودة -Phantom pain. وما جعل الموقف أسوأ هو محاولة الأطباء إقناعي أن مثل هذه الآلام غير

موجودة بالأساس. وكانت فترة الأربعة أسابيع هذه، فترة عجز بالنسبة لي. فقد كُنت مُدركة لضعفي وعدم مقدرتي على رعاية نفسي ممّا جعلني غاضبة للغاية (كانت عائلتي وأصدقائي بجواري طوال الوقت). فقد كُنت شخصيّة مُستقلة تماماً، وفجأة رجعت مثل طفلة صغيرة مرّة أخرى. ولم يكن من السهل أن استجمع قوايّ لفعل الأشياء التي اعتدت عليها من قبل التي لم أقلق بشأنها قط في السابق لأنها كانت أمور مسلّم بها، أما الآن فصارت تبدو شبه مستحيلة.

لا أعلم كيف كانت لشخصيتي أن تكون لو لم يصبني هذا الحادث ومن ثم أخوض تبعاته، لكني أعتقد أنه جعلني أقوى. فعندما أدركت حاجتي للآخرين من حولي من جهة وأيضاً ضرورة التعامل مع موقفي من جهة أخرى تجلّتْ لي بكامل الوضوح أهمية دور حياة الجماعة المتضافرة من حولي. فبدلاً من أن أشعر أني عديمة الفائدة لأنّي لا استطيع القيام بأمور مُعيّنة، وجدت أنّني عندما اعترف بحاجتي إلى المُساعدة، فإنّ هذا يجعلني شخصا كاملا أكثر وأكثر. كنت من قبل أميل إلى الاستعلاء على هؤلاء المعاقين الذين لا يستطيعون الوفاء بُمتطلّبات الحياة بُمفردهم، لكني الآن تعلّمت درسا جيدا في قبول الآخرين كما هُم من خلال تعلُّم طلب المساعدة.

في حياتي الشخصية – يقول المؤلف - كان يتحتم عليّ باستمرار مواجهة حالات من الإحباط والغضب وكنت أقوم أحياناً بإلقاء اللائمة على الله، ففي إحدى المرّات كُنت في رحلة صيد سمك في ولاية نيويورك - وكانت رحلة فاشلة فيما يتعلّق بالصيد، لكنها كانت فُرصة جيدة للهروب من ضغُوط العمل لبضعة أيّام.

وفي طريقي إلى المنزل، لاحظت أنّني بدأت أفقد صوتي. فتجاهلت الأمر في البداية متوقّعا أنّه سيتحسن خلال بضعة أيّام، لكنه لم يتحسّن. فذهبت إلى الأخصائي الذي شخّص الأمر بأنّه شلل في الحبال الصوتيّة. وأكّد لي أنّي سأسترد صوتي لاحقا، لكن مرّت أسابيع وشهور ولم يحدث أيّ تغيير. وقد

وصف لي راحة تامّة للصوت، ولم يكن مسموحاً لي حتّى بالهمس. وتساءلتُ: "هل تراني سأتكلم ثانية؟"

وممّا زاد الأمر سوء، أنّ مُجتمع كنيستنا كان في حاجة ماسّة إلى قيادة قويّة في ذلك الوقت. فقد كُنّا في خضم أزمة - لقد كان وقت مليء بتفحص النفوس - وخلال تلك الأسابيع من النقاش الساخن وأحياناً متخاصم لم أقدر سوى الجلوس جانباً صامتاً.

كان يلتهب صدري لهفاً على الاشتراك في تلك الاجتماعات، لكنني لم أقدر؛ فلأوّل مرّة أُدرك حقاً قيمة عطية الكلام. وفي وسط إحباطي وخور عزيمتي لم يسعني حتى التكلم مع زوجتي وأولادي، بل كان عليّ أن أكتب كلّ شيء لهم. كنتُ غاضبا بصراحة. وباعتباري قسيسا لمجتمع كنيستنا، لم أستطع أن أفهم أرجحيه إسكات الله لي في زمن كان يحتاجني بصورة بيّنة.

وبعد ثلاثة أشهر، بدأ صوتي يعود، وبعد مُضيّ خمس سنوات أصبح طبيعيّاً، لكني لم انسَ مطلقا تلك الأسابيع الاثني عشر. فعندما أعود بذاكرتي إلى الماضي، يمكنني أن أرى أنّ عجزي عن الكلام ساعدني أكثر على تنمية نظرة مرنة ومتواضعة عن الحياة. وتعلمتُ تدريجيا على إنعام النظر في إخفاقاتي الشخصية وأيضا الاستفادة الإيجابية القصوى من أي موقف معيب. ويقرع ذلك الوقت دائما في ضميري عند كل مرة أدنو لألوم الله في لحظات الأزمات والإحباط.

صارعت "أندريا Andrea" روحيا، وهي سيّدة في أحد مجتمعات كنيستنا برودرهوف Bruderhof التي تعيش حياة مسيحية مشتركة، صارعتْ لقبول ظروف مختلفة تماما: فقد عانت من ثلاث إسقاطات في الحمل قبل حصولها على طفل سليم. وفي بعض الأحيان وجدت أنّ أعبائها ثقيلة جدا لا يمكنها احتمالها. فتقول:

> غمرتنا السعادة أنا وزوجي "نيل" عندما اكتشفنا أنني حامل بعد حوالي ستّة أشهر فقط من زواجنا، لكن في إحدى الليالي قبل عيد الميلاد Christmas شعرتُ بألم حادّ ازداد سوء بسرعة. وأراد طبيب أخويتنا أن

يرسلني إلى المستشفى، وجاءت جارتي الممرضة لتبقى معي إلى أن ذهبنا إلى البلدة. وأكّدتْ الممرضة لي ما كنت أخشاه - وهو أنّني قد أفقد طفلي. وكان الألم النفسيّ قاسياً تماماً كالألم الجسديّ الذي شعرت به. لماذا يا الله؟ لماذا أنا؟ لماذا ستأخذ تلك النفس الصغيرة بهذه السرعة؟ ما الذنب الذي ارتكبته؟

ولغرض إنقاذ حياتي، تحتّم إجراء عملية جراحية. وفقدتُ الطفل، وقضيت أسابيع لاسترد عافيتي. يا له من عيد ميلاد مختلف هذه المرة!

وتعذبنا كثيرا بسبب هذه الخسارة، وكنّا نعاني وحدنا من ألمنا هذا. وعندما قال لنا أحد أقاربنا: "ابتهجا! فسيكون حظُّكما أفضل في المرّة التالية"، شعرت وكأنني تلقيت صفعة على وجهي. حظ؟ أي حظ هذا؟ لقد فقدنا طفلاً توا! إنسان حقيقي! طفلنا!

أرسل أحدهم بطاقة لي تقول: "الربُّ يعطي، والربُّ يأخذ، مبارك اسم الرب " غير أنَّ هذا دمّرني فعلاً. فكيف لي أن أشكر الله على هذه التجربة المؤلمة والفظيعة؟ فلم أقدر. ولم أتمكن من التوقف عن التفكير في أنّ الله كان يُعاقبني بالحقيقة، بالرُّغم من عدم معرفتي بالسبب.

وعزّاني راعينا الروحي قائلاً: "الله إله المحبّة، وليس إله العقاب، وهو موجود ليخفف عن آلامنا." فتمسّكت بكلماته مثلما يتمسّك الإنسان الغارق بأيّ شيء ليصل به إلى الشاطئ. أما الدعم الحميم لزوجي "نيل" فبدا وكأنه علامة مرئية لمحبة الله هذه، واكتشفنا أنّ الألم قد ربطنا معاً بطريقة جديدة. والعبارة التالية: "سيدوم البكاء طوال الليل، لكن الفرح قادم في الصباح"، عزتّني كثيرا وخففت عني، حتى حينما لم أحسّ بقدوم ذلك الفرح، وحينما كان يبدو أن الفجر لن يبزغ بعد.

وتدريجيا مع الوقت وبالمعونة الحميمة لهؤلاء الذين يحيطون بي من أخوة وأخوات من مجتمعنا المسيحي، استطعت أن أشعر أنّ تلك التجربة المؤلمة قد أعطتني لمحة عن محبّة الله، الذي يهتمُّ بمُعاناة الناس، الذي كان – وأنا على يقين تام – موجوداً بقربي في آلامي. وأصبح الله واقعاً حقيقيّاً، أكثر وأكثر بالنسبة لي، وبدأت أثق في محبّته.

لكن بعد عدّة شهور لاحقة عندما كُنت حاملاً في طفل آخر، وأتطلّع بشوق لأن تسير الأمور على ما يُرام هذه المرّة، حدث الشيء نفسه مرّة أخرى. ألم حادٌّ، ورحلة في سيارة الإسعاف إلى المُستشفى، وعملية لإنقاذ حياتي. وهنا مرة ثانية، فقدنا أنساناً صغيراً وعزيزاً فور تكوينه. ومزّق الألم قلبي. وكتبت في مذكراتي: "لا يسعني أن أفهم السبب؛ وربما لن أفهم أبداً. أريد الاطمئنان الذي يُنعم به الإيمان – رحمَتُكَ!"

وقف "نيل" معي جنباً إلى جنب في محنتي وبكل وفاء، وكان قد فقد أخته بسبب السرطان منذ عدّة سنوات، وكان ما كتبه عند تلك المرحلة مصدر تشجيع كبير لي: "إنّنا مُنفصلون عن الله جسديا فقط، وربما لا تكون تلك المسافة كبيرة". وتمسّكتُ بهذه الكلمات بكلّ قُوّتي.

وعلى مرّ الأسابيع والأشهر التي تلت، تضاءلتْ تدريجيا أوجاعنا وأحزاننا، بالرغم من أنها لم تفارقنا مطلقا بصورة كاملة. وبعد سنة تقريبا فقدنا مرة أخرى طفلا لم يلدْ بعد. وهنا أيضا، أكتنف قلبي ألما بالغا، لكنني لم أقم هذه المرة بأية محاولات يائسة لمعرفة السبب.

واليوم "أندريا" أمٌ لطفلة جميلة عُمرها ثماني سنوات. وبالرغم من أنها تُدْمَرُ نفسيّاً وينتابها فيض من المشاعر حينما تتذكر حالات الحمل الثلاث الأولى، إلا أنَّ قلبها خالٍ من أي استياء. وتُحاول أن ترى الجانب الإيجابيّ من مُعاناتها، وتشعر أنها، وبفضل تلك المعاناة، صارت تحب زوجها بصورة أكثر وجدانية فضلاً عن أنها جازت في الجحيم وعادت منه سوية مع زوجها، فتراها صارت أيضاً تثمّن ابنتها بصورة أكبر مما لو لم تمرّ بتلك التجربة.

تزوّج "جوناثان رودس Jonathan Rhoads" من "جريتشن Gretchen" في عام 1995، ليؤسسا أسرة شابة في مجتمعنا المسيحي الذي يعيش حياة مشتركة. ومثلهما مثل أية عائلة جديدة، فقد انتظرا بشغف ميلاد أوّل طفل لهُما. وولد "آلان Alan" بعد فترة حمل كانت تبدو طبيعيّة، ولم يلاحظ الأبوين وجود أشياء غير طبيعية على "آلان" إلا بعد مغادرتهم للمستشفى. فما كان الطفل يأكل جيدا، بالإضافة إلى أنّ تحكُّمه في عضلاته كان ضعيفا، وكان يبقى

في مكانه بلا حراك، وعندما كان يتنفس، كانوا يسمعون مرات صوت قرقرة غريبة. وجرى قبوله على الفور في إحدى المستشفيات الجامعية القريبة منّا، لكن مشاكله الصحية لم تتضح للأهل إلا بعد بلوغه الثلاثة أشهر؛ فقالوا الأطباء أن هناك احتمالية عدم قدرته على المشي والتكلم بقية عمره، هذا وقد كان مكفوفا؛ وكانت هناك أمور واضحة وغير طبيعيّة في الورك، والدماغ والأذنين والمعدة.

أما والديّ "آلان" فتحطموا نفسيّاً، فقد ظلاّ لفترة طويلة يشُكّان في وجود علّة معينة في طفلهما، لكنهُما لم يتوقّعا مطلقاً أن يكون الأمر بهذا السوء. وقد بدءا على الفور في اتهام نفسهما، ولم يمرّ وقت طويل حتى بدءا في اتهام الله قائلين: "لماذا نحن؟"

وأخبرني "جوناثان" في أحد المرّات أنّه كان غاضبا، لكن عند مسائلته لم يستطع أن يُحدّد ذلك الشخص الذي يُوجّه له غضبه. هل هو نفسه؟ أم زوجته؟ أم الأطبّاء؟ أم الله؟ نعم، ربما الله. إلا أنه لم يعرف السبب. فقد قال:

> من الأشياء التي تتعلّمها بسُرعة هي ألاّ تقارن طفلك بأطفال الآخرين. فطفل جارنا في حجم "آلان" لكنه في ثُلث عمره. وهو لا يجد أيّة مُشكلة في شرب الحليب من زجاجته خلال خمس عشر دقيقة. أمّا نحن فعندما يشرب "آلان" سنتيمترا واحد من الزجاجة، فإنّنا نشعر بانتصار كبير. لماذا؟ لا يوجد ما نقوله. فإمّا أنّ الله يكرهنا، أو أنّ هذا هو ما أراده الله فعلاً لطفلنا "آلان". وقد لا نعرف أبداً السبب، لكن إن امتلأت أحشاؤنا بغضاً واستياءً، فسوف نقتل بذلك كل الأفراح التي قد ننالها.

وعندما جاءا لي باحتياجهما، أكّدتُ لكل من "جوناثان" و "جريتشن" على أنّهُما ليسا مسئوليّن - بأيّ صورة من الصور - عن مُعاناة ابنهما. وأخبرتهما أنّ كلّ طفل هو عطيّة من الله، وأنّ "آلان" رُبّما يكون عطيّة خاصّة للغاية، لأنّنا عن طريقه نتعلّم دروسا قيّمة عن الصبر والحنان. فهو يُذكّرنا بالأُمور الهامّة في الحياة، وينشلنا من سباق الجرذان (بمعنى التنافس العنيف الأحمق في الحياة)، ويساعدنا على ترتيب أولويّاتنا بطريقة سليمة، مثله مثل كل الأطفال

ذوي الاحتياجات الخاصّة. فالأطفال أمثال "آلان" لهم القابلية على استخراج ما هو الأفضل في داخلنا، ويعيدون اتصالنا مع إنساننا الداخلي الحقيقي.

وما زال والدي "آلان" يجاهدان لأن يغفرا. فهو ليس أمرا سهلا. فأحيانا يريدان الهروب، عندما لا يتمكّنا من مواجهة زائر آخر يُقدّم لهما كلمات عطف بلا معنى، أي بمعنى مجرد كلام فيه مجاملات خالية من الإيمان ولا يعزّي الروح.

وباقتراب "آلان" من عيد ميلاده الأوّل، فإنّ والديه يُواجهان مستقبلا مجهولا. وكانت آخر التطورات أنه كان عليه أن يُركّب خراطيم للتنفس الاصطناعي وأنابيب من أجل إطعامه، وفوق كلّ ذلك، كان عليه استئصال الزائدة. فكم من العذابات يلزمه أن يتحمّل بعد؟

وفي عالمنا الذي يدعو إلى "التشخيص المُبكّر" (و "إنهاء الحمل" وهو مصطلح منمّق بديل عن كلمة إجهاض) كإجراء لتفادي حالات الأطفال المُشوّهين، يشهد والديّ "آلان" عن القيمة الجوهريّة لكلّ طفل في العالم. ويقولون أن "آلان" ليس مسألة شذوذ وراثيّ، وإنّما هو إنسان لديه الكثير ليقوله لنا، وإنّهُما ليسا على استعداد لأن يسمحا له أن يموت. وتكتب الأم "جريتشن" قائلة:

> تمتد يده الصغيرة لتصعد عبر الأسلاك المتشابكة بحثاً عن خدي. وعندما انحني لأرفعه من سريره، تتحرّك جُفونه قليلاً ويُعطيني ابتسامة عريضة هادئة... وفي خلال الأشهر الأحد عشر الأولى بعد ولادته، كان "آلان" قد دخل المستشفى خمس مرّات؛ أمّا عدد زيارات العيادات فلم نعُد نحصيها. وفي كلّ مرّة كُنا نعود فيها إلى المنزل، يكون في داخلنا المزيد من الأسئلة والقليل من الأجوبة؛ ومزيدا من الدموع، ويقيناً أقل. لكن عندما كان الطفل يشدّ نفسه باتجاهي وينظر حواليه بحُبّ الاستطلاع، فقد كان يبتسم. ورضاه عليّ بَلسماً لقلبي.
>
> ما مدى الألم الذي يمُكن أن يحتمله؟ وما هي العقبات الجديدة التي تنتظرنا؟ لسنا نعلم بالتحديد. فقد أزال خرطوم التنفس الاصطناعي بعض المغامرات الصغيرة التي كنا نتطلّع لها مثل الأكل بقنينة الحليب أو

حتّى بعض الطعام القويّ. فلم تعُد هناك قرقرات ضحك منه، ولا حتّى صرخات بكاء الإحباط.

ويُخبرنا الأطبّاء أنّه لو عاش، فقد لا يحتاج إلى تلك الخراطيم. هذا "لو عاش!". مزقتْ هذه الكلمات فؤادينا، لكن ابتسامته لا تزالُ تُعطينا أملا. فهو يُعلِّمنا القبول – ومن ثم الغُفران - كُلّ يوم.

الفصل الرابع عشر

تأثير الغفران ينتشر مثل الموجات المائية

إنَّ المحبة العملية أمر قاسٍ ومُفْزِع بالمقارنة مع المحبة الحالمة. فمحبة الأحلام طمّاعة، حيث تطمع في تنفيذ فوري، وأداء عاجِل وأمام أنظار الجميع. والناس مستعدون لبذل نفوسهم إن لم يطُلْ عذاب المحنة...مع مشاهدة وتصفيق الجميع. أما المحبة العاملة فهي عبارة عن جهود مبذولة وصبر وثبات.

قول من
فيودور دوستويفسكي Fyodor Dostoevsky
وهو من أكبر الكتاب الروس ومن أفضل الكتاب العالميين

لسنوات عديدة، وكلما أسمع أسم البلد رواندا يكون رد فعلي فوري. فتخطر على بالي المذابح الجماعية، ومعها صور مروعة من عام 1994 عندما مُحِيتْ قرى بأكملها عن الوجود في مجزرة تُعَدُ من أسوأ المجازر في التاريخ المعاصر. أما اليوم فيخطر على بالي أمر مختلف تماماً عند سماعي بهذا البلد. إنها المغفرة وقدرتها العجيبة على شفاء حتى أكثر فصول التاريخ الإنساني ظلمة. والتغيّر في رد فعلي جاء في عام 2008 بعد مقابلة "جان بولس سامبوتو Jean-Paul Samputu".

فقد كان "جان بولس" موسيقيّاً على مستوى عالمي وذو جدول أعمال مكثف، وكان يُشَبَّه بالمغني الشهير "بولس سايمون Paul Simon"، وقد غنّى في

كل مكان، بدءً من أرياف أفريقيا وانتهاءً بمركز "لنكولن Lincoln Centre" للفنون في مدينة نيويورك.

وقد فاز بالعديد من الجوائز الفخرية، منها جائزة "كورا Kora Award" الذائعة الصيت، لكن الذي لفت انتباهي هو ليس موسيقاه، وإنما رحلته من الغضب والحقد إلى المغفرة والفرح... فها هو يحكي لنا:

تأملوا هذا، لقد جرى قَتْل مليون شخصا في غضون تسعين يوما! فقَتَلَ الأصدقاء أصدقائهم، والإخوة إخوتهم، والأخوات أخواتهن، والأولاد أهاليهم، والأزواج زوجاتهم...

وفي خضم ذلك الوقت، كنت أتجول في دولة بوروندي وأوغندا – ولأني كنت شهيرا في رواندا، نصحني أبي بالهرب من البلد، لكنني رجعتُ إلى بلدي في شهر تموز من عام 1994 عند نهاية المذابح.

وكنت أعلم سلفاً أن والداي قد لقيا مصرعهما – فكانا قد قُتلا في شهر أيار في قريتنا "بوتير Butare" التي تقع جنوبي العاصمة. كما قُتل ثلاثة من أخواني، وأختي التي كانت بعمر 34 سنة. فقد كان الأمر فظيعاً للغاية.

كانت عائلتي من قبيلة "توتسي Tutsi"، وكان جيراننا قد شرعوا في قتل أبناء قبيلتنا. وكنت أعتقد أن أختي بأمان لأنها كانت متزوجة من رجل من قبيلة "هوتو Hutu"، لكن بالحقيقة لم تجرِ الأمور كما اعتقدتُ. فقد قتلوها شيئاً فشيئاً، ولمدة ثلاثة أيام. هناك الكثير من الأمور التي لا أقوى على الحديث عنها...

وعندما رجعت إلى رواندا، سافرتُ إلى قرية "بوتير"، وذهبت إلى منزل والدي. لقد كان فارغاً. بحثتُ عن الجيران. لم يكن هناك أحد. كانت الجثث في كل مكان. وأيّ رائحة! أخيراً عثرتُ على بعض الناجين، وعرفتُ مَنْ قَتل والداي. كان أفضل أصدقاء الطفولة، "فينسنت

Vincent". فقد ترعرعنا سوية، ولعبنا الكرة سوية. فأنشلَّ لساني من الصدمة؛ فقد دمرتني الأحداث كلياً.

في الواقع، لقد فقد كل واحد من قبيلة توتسي فرداً من عائلته في عام 1994، لكن بمجرد التفكير أن والداي قد قُتِلوا على يد أعزّ أصدقائي!... كنت أفقد صوابي. وبدأت أتعاطى الكحول والمخدرات. فَصرتُ أشرب قنينة كاملة من الجن الأفريقي "واراجي Waragi" كل يوم. وكنت أتعجب من سبب عدم موتي من جرائها. أما الآن فأنا أعرف السبب.

وفي السنين التسع التي تلت، كنت أعيش مذهولاً. فالغضب والألم والاستياء أدّوا إلى دمار شامل لي. فكانت هناك حرب مشتعلة في داخلي، وتمزقني. ولم أعد بعد قادراً على الغناء، لأنني كنت ثملاً باستمرار. فلم أقدر على إجراء العقود الموسيقية؛ ولم أكن مستعداً للمثول على المسرح الغنائي.

ذهبت إلى أوغندا، وحاول الأصدقاء مساعدتي. فجاءوا بي إلى طبيب ساحر، الواحد بعد الآخر، لكن لم يفدني شيء. وكنت غاضباً على نفسي وعلى الله. "أين كنتَ يا الله؟" وصرت أسأله وأسأله مرات ومرات. "كيف تسمح لمثل هذه الأمور أن تحدث؟"

كانت زوجتي "كلوديا" حاملاً آنذاك. والطفلة التي جاءتنا كانت معوّقة جداً. الأمر الذي جعلني أكثر عصبيّة. وأخذت ألوم الله. وبحصولنا على تلك الطفلة المعوّقة تدمّرنا كلانا، أنا وزوجتي، وأخذ أحدنا يتهم الآخر...

انتقلتْ عائلة "سامبوتو" إلى كندا في عام 1998. واستقرت العائلة في مونتريال، حيث كانت تقطنها جالية كبيرة من الروانديين المهاجرين، ثم جاءهم طفل آخر. وفي عام 2000 تطلّق الزوجان. وعاد "جان بولس" إلى أفريقيا. فيردف قائلاً:

ذهبتُ إلى أوغندا – كنت نجماً غنائياً هناك – وأقمتُ عرضاً غنائياً كبيراً هناك. وكسبت مالاً كثيراً مرة ثانية. وبسبب إدماني على الشرب والمخدرات، كان الأمر ينتهي بي دائماً في السجن. فصرتُ أدخل وأخرج من السجون، مرة بعد أخرى. والآن أعرف جميع السجون هناك؛ فقد قضيت فترة في كل منها.

أخيراً، دفع أخي مبلغاً ضخماً لإطلاق سراحي، وذهبت معه إلى كينيا حيث يسكن. وبينما أنا هناك، زارنا صديق لعائلة زوجته الذي كان مسيحيا إنجيليا ويدعى موسى. وقال أنه جاء من أجلي – وأن الله أوعز إليه ليجدني ومن ثم يصلي من أجلي.

كنت متردداً، لكنني أصغيت إليه، وبعدئذ سمحتُ له أن يصلي عليَّ. وبصراحة، كنت مستعداً لأي شيء وقتذاك، فلم يكن لي أي خيار آخر. إذ لم ينجح أي شيء آخر معي.

كانت صلاة موسى جبارة. فقد أعانني على التغلّب على إدمان الكحول والمخدرات عندما أمر الشياطين بمغادرتي. فصلى هكذا: "اخرجوا منه، باسم يسوع." وكلما كان يذكر أسم يسوع كنت أحسّ بشيء غريب. فكنت غالبا ما أسقط أرضاً، وأحياناً كنت حتى أتقيأ. فمن الصعب أن أوصف الموقف. فكل ما يسعني قوله هو أنه في كل مرة كان ذلك الرجل يصلي، كانت صلاته جبارة بشكل لا يُصَدّق.

في البداية قلت له: "إنك أحسن من أفضل طبيب ساحر عرفته." (فكان هذا كل ما عرفته عن الموضوع) فضحك وقال: "كلا، أنا لست بطبيب ساحر". وعندما شكرته، أصرّ على أنه لم يقم بأي شيء سوى الصلاة. "لا تشكرني أنا، فأنا لست الطبيب الذي شفاك. إنه يسوع". وعلى الفور صار قلبي يتّقد شوقاً ليسوع. وأردت معرفة المزيد عنه، ومن هو. وبعد ثلاثة أشهر توقفت عن الشرب، وانقطعت عن المخدرات.

ذهبت إلى أوغندا في عام 2003. والآن أنا مسيحي، وقد كتبتْ كل الصحف عني، مثلما فعلتْ سابقاً عندما ذهبتُ إلى السجن. فكانت قصة

كبيرة: "سامبوتو غيّر حياته". "سامبوتو يؤمن بالصلاة". أما أنا فذهبت إلى جبل "سيجوكو Sseguku" وهو أشهر جبل في أوغندا للصلاة. فالناس يقصدونه من كل حدب وصوب ليكونوا مع الله. وقضيت ثلاثة أشهر محاولاً أيجاد يسوع.

صليتُ وصليتُ كثيراً على جبل "سيجوكو"، وسألت الله جميع أسئلتي. كنت أتلقى الجواب نفسه. فكان الجواب يأتيني في الأحلام، عن طريق صوت وكأني كنت أتحدث معه. وحدث هذا الشيء ليلة بعد ليلة، والرسالة كانت دائماً ذاتها: "يجب عليك أن تغفر".

كنت أذهب إلى الكنيسة هناك على الجبل، وكنت أسمعهم يوعظون بالموضوع نفسه. وأنا شخصياً لم أرد أن أسمعه، لكن لم يكن هناك أي مفر منه. وصرت أسمع هذا الصوت مرات ومرات في نومي يقول لي: "ستشفى بمجرد أن تغفر للآخرين". على أنَّي تابعتُ العناد والمقاومة لسنة أخرى في الأقل.

وهنا أيضاً، فبالرغم من أنني كنت مسيحياً وتركتُ الشرب ولم أتعاطَ المخدرات بعد، إلا أنني لم أكن قد تحرّرتُ أو شفيتُ بالكامل. كنت "على ما يرام" إلى حد ما، لكن ما زال كان هناك استياء في صميم كياني. فهذه كانت المشكلة، لأنه لا يكفي أن تكون مسيحياً، أو حتى أن تحفظ الكتاب المقدس كله. فهذا مجرد نصف البرنامج. فما يهم هو أن تعيش ما تعرفه صائباً – أي أن تعيش الحقّ.

كان يعني هذا في نظري أمر واحد لا غيره وهو أن أذهب وأسدد ديوني في كل مكان. فكان يلزمني أن أطلب المغفرة والعفو من حيث قد أسأت إلى الآخرين. كان يلزمني أن أغفر لـ "فنسنت"، وأن أغفر لزوجتي.

كانت معركة صعبة. فكنت دائماً أردّ لا. لا! واستغرق الأمر شهوراً. إلى أن جاء يوم عندما أحسستُ فيه أني لا أحتمل بعد. فكان عليّ أن أتنازل، وأقول نعم. فقلت في نفسي: أنا جاهز، الآن، وفي الحال، لأغفر لـ "فنسنت". ولما فعلت ذلك تحرّرتُ – وشفيتُ بالكامل، وتمَّ كسر قيود كل شيء من الماضي. ودخل السلام إلى قلبي. وحدث كل هذا بسبب

جوابي لذلك الصوت عندما قلتُ نعم. واتصلتُ تلفونياً مع زوجتي. وذهبت لأبحث عن "فنسنت". كان في السجن، لكني وجدت زوجته "رَجينة"، وطلبت منها أن تقول لزوجها "فنسنت" أنني قد غفرتُ له...

عندما طلبتُ من "جان بولس" تحديد بالضبط الأمر الذي دفعه ليغفر لصديقه القديم، قال أنه بدأ يقلق من أنه هو نفسه صار يتحوّل إلى قاتل. كما مبين فيما يلي:

أحمد الله على أنني لم أجد "فنسنت" قبل هذا الوقت. فأنا لم أؤاذِ أحداً طوال عمري، إلا أنني كنتُ، بعد هذه المذابح، عاقد النية على أذية "فنسنت" في قرارة فكري. فكنت في طريقي لقتله. وحتى لو لم أكن قادراً على فعلها بنفسي، كنت ناوياً على أن أطلب من أحدهم ليقتله. فهذا ما يأخذنا الحقد إليه: حيث ينتهي الأمر بك لتصير قاتلاً أنت نفسك، حتى لو لم يكن لديك أية فكرة عن كيفية القتل.

وأخيراً عندما غفرتُ لـ "فنسنت" بالفعل، أستصعب "فنسنت" تصديق الأمر. فقال لزوجته: "كيف له بحق السماء أن يفعل ذلك؟ بعد كل الذي فعلته معه؟" وكان كل ظنه أنها خدعة، ومجرد حيلة سياسية. إلا أنَّ زوجته قالت له: "لقد تكلمت مع 'سامبوتو'. وإن لم تقبل مغفرته، فهذه مشكلتك، لكن دعني أن أقول لك شيئا، إنّ الذي يغفر لك هو ليس 'سامبوتو' بل الله. إنّها النعمة الإلهية".

صَدَّقَني "فنسنت" أخيراً، وخلق هذا الأمر شيئاً عجيباً. فقد كانت زوجته سابقاً لا تسمح له بالرجوع إلى البيت. فلم تقدر أن ترى نفسها تعيش مع قاتل غير تائب. أما عندما قبل "فنسنت" مغفرتي له (لأنه قد رأى أن الله فعلاً كان وراء كل شيء) صار في مقدوره التوبة ومسامحة ذاته. بعد ذاك، غفرتْ له زوجته "رَجينة" أيضاً. فقالت له: "إن غفر الله لك عن طريق 'سامبوتو'، فيجب عليّ أنا أيضاً أن أغفر لك". وغفر له أيضاً جميع أولاده. وهو الآن ينعم في بيته. وأسرته جميعها معاً. وعندما أزورهم أتناول الطعام سوية معهم. فهكذا تعمل قوّة المغفرة.

جان بولس مع صديقه فنسنت بعد تصالحهما

والتغيّرات التي طرأت على حياة "جان بولس" جمّعت أسرته كذلك. فقد عاد "جان بولس" إلى أسرته في كندا في عام 2005. فاسمعوه يقول:

> منذ ذلك الوقت حدثت عجائب كثيرة في حياتي. فقد تكلم الله معنا من خلال فم مربية أبنتنا المعوّقة، التي بيّنت لنا أن بنتنا ليست بنت كسيحة وإنما ملاك. فقالت لنا: "لقد خلق الله بنتكما كلوديا، وفي نظره لا يوجد أي عطب فيها. وأنتما تشعران بالغم من طفلة كهذه. حتى أنكما لا تريدان النظر إليها. والأولى بكما أن تفتخرا بها".
>
> وفي المرة القادمة التي ذهبتُ فيها لزيارة "كلوديا" (فهي لم تكن قادرة على السكن معنا، بل كانت تسكن في قسم خاص) بكيتُ، وشاهدني أبني

أبكي. فسألني: "لماذا تبكي؟" بعد ذلك صلينا معها. وأخيراً تمكنتُ من أن أقرّ وأقول: "لقد أنعم عليّ الله فعلا بهذه الطفلة".

وبفضل مربية "كلوديا" بدأتُ أحسّ أن الله بالحقيقة قد باركني عندما رُزِقنا بمثل هذه البنت. واليوم، وبدلا من إلقاء التهم أحدنا على الآخر بسبب حال بنتنا، أدركنا أنا وزوجتي أن بنتنا هي كنز لا يقدر بثمن. وأعلم الآن سبب عدم موتي عندما كنت أحاول قتل نفسي بالمخدرات والشرب. فقد حفظني الله لأكون والداً للعائلة.

وبمقتضى ما تبرهنه قصة "جان بولس" (مثلما تفعل جميع قصص هذا الكتاب)، فإن الغُفران يُعتبر مسألة شخصية بحتة. فكل منّا يجب عليه أن يجد شفاءً داخلياً، بأساليبنا الشخصية، وفي الزمن الذي نعيش فيه. أما على صعيد آخر، فإنَّ الغفران هو أكثر من ذلك. فحتى لو كان الغفران في مقدوره أن يربط الناس بعضها ببعض، إلا أنَّ تأثيره يشبه "تأثير الموجة" الذي يمكن أن نلمسه على نطاق أوسع بكثير. وفي الحقيقة والواقع، يمكن للغفران أن يكون قوة اجتماعية مقتدرة، فهو له القدرة على أن يغيّر ويقوّي جماعات من الناس بأكملها.

فنرى في تاريخ العالم كيف كان كل من دور "مارتن لوثر كِنج" في حركة الدفاع عن حقوق الإنسان في الولايات المتحدة الأمريكية، ودور "غاندي" في صراع الهند من أجل الاستقلال المثالين الأكثر معروفين في موضوع تأثير الغفران على نطاق واسع، لكن هناك الكثير من الأمثلة غيرهما. فيمكننا كتابة مجلدات عن دور "هيئة الحقيقة والمصالحة" في دولة جنوب أفريقيا، وعن جميع جلسات التحقيق التي عقدتها في أواسط التسعينيات. وتحتَ رعايتها وإرشادها، صارت المئات من كل من الضحايا وأيضا من مرتكبي جرائم سياسة التفرقة العنصرية الوحشية للبلد، صارت تتدفق لمواجهة الماضي المرير، أملاً في شفائها وبناء مجتمع جديد أكثر استقرار.

سافرتُ مع زوجتي إلى إيرلندا الشمالية في عام 1999 وكذلك في عام 2000، كمشتركين في رحلة خاصة سميت بـ "رحلة من أجل السلام" وقابلنا المئات من الناس – وحتى المئات من الصغار الذين كانوا أكثر حماسة – حيث اجتمعوا كلهم ليشفوا جراح تلك المنطقة التي كانوا يسمونها "اضطرابات" وذلك عن طريق ترويج الحوار والمصالحة ما بين المواطنين الكاثوليك والبروتستانت.

بعد حوالي عشرة أعوام، حدث الشيء ذاته في رواندا. خذوا على سبيل المثال بلدة "نياماتا Nyamata" التي تقع جنوبي العاصمة كيغالي. فعندما بدأت المذابح الجماعية في ربيع عام 1994، وجد كل من "موكامانا" – فتاة من قبيلة توتسي – و "أزيري" – مزارع من قبيلة هوتو – وجدا نفسيهما في معسكرات متضادّة.

ففي أحد أيام الربيع عندما عادت "موكامانا" إلى البيت راجعة من البئر لجلب الماء، وجدت أن عائلتها كلها قد تمَّ قتلها وتقطيعها أرباً أرباً بالمدية (آلة الحشّ). فاختبأت بأحد الحقول، ومن ثم فرّت إلى دولة بوروندي المجاورة.

و "أزيري" المزارع لم يشترك في هذه المجزرة بالذات، لكنه قد اعترف لاحقاً بقتل آخرين في المنطقة نفسها.

أما اليوم، فيعيش الاثنان كالجيران، حتى أنهما يذهبان إلى الكنيسة نفسها أيام الآحاد. وقال "أزيري" لأحد الصحفيين من IRIN وهي شبكة المعلومات الإنسانية التابعة للأمم المتحدة: "إن بعضنا يساعد بعضاً." كما أضاف قائلاً: "حينما يمرض واحد من جيراننا، نزوره في البيت". حتى أنه يشير إلى شيء أكثر أهمية قائلاً: "وصار أولادنا أصدقاء".

ويعيش كل من "موكامانا" و "أزيري" مع حوالي أربعين أسرة أخرى في مجتمع يتألف من الناجين من المذابح ومن مرتكبيها ممنْ اعترفوا بذنبهم. والقرية المُستحدثة التي أطلقوا عليها أسم "إمِدُجودو Imidugudo" (ومعناها قرية المصالحة) كان قد بدأها قسيس أنكليكاني (من الكنيسة الأنكليكانية

الانكليزية) ويدعى "ستيفن كاهيجي Steven Gahigi"، الذي كان كل أباه وأمه وإخوته قد قُتِلوا في عام 1994.

كان "كاهيجي" قد ظنَّ بأنه قد فقد قابليته على الغفران، فقال: "داومت على الصلاة إلى أن رأيت في إحدى الليالي صورة يسوع المسيح على الصليب... وتأملتُ كيف هو غفر للآخرين، فعلمتُ أنني وغيري من الناس نقدر أن نغفر أيضا". وبفضل هذه الرؤية امتلأ "كاهيجي" إلهاماً وعزيمة وأخذ يعظ بالغفران ويحكي للناس عنه. ولم يقُمْ بذلك في بلدة "نياماتا" فحسب بل أيضاً عند زيارته للسجون حيث كان مرتكبي الجرائم من قبيلة هوتو من الذين كانوا ينتظرون محاكماتهم. (علماً أن الحكومة في عام 2003 قد أخلت سبيل الآلاف من السجون لتخفيف شدة الزحام.)

ولم يكن تعلّم المغفرة أمراً هيّناً، حسبما قال القرويون، فقد أقرّت "موكامانا" بذلك قائلة: "لمدة طويلة، لم أكن أعتقد مطلقاً بأنني سأقدر أن أغفر للآخرين". لكن حيثما يستعد الناس لمواجهة ماضيهم بأمانة، ستشفى الجراح النفسية القديمة، وسيتيسّر لأشياء عجيبة أن تحدث.

ويبدو أن هذا الأمر هو الذي جعل المغفرة ممكنة في قرية "إمِدُجودو"، حيث يحكي فيها الناس لأولادهم عن دورهم في عام 1994. ويقول "خافيير ناماي Xavier Namay" وهو أحد مرتكبي المذابح من الذين قد أقرّوا بشناعة ذنبهم: "إنَّ لمذابح الإبادة الجماعية آثار وعواقب وخيمة على كل الذين اقترفوها الذين نجوا منها". ويردف قائلاً: "يجب أن يعرف أولادي الشيء الذي اقترفته لكي يبنوا هذا البلد".

وفي السنين الأخيرة نرى ظهور مبادرات مماثلة في مناطق أخرى في أرجاء العالم. في إسرائيل مثلا واندونيسيا وبغداد ودول البلقان ومجموعات مثل "فرق صانعي السلام المسيحية Christian Peacemaker Teams"، وهيئة خدمات الأمريكيين الأصدقاء American Friends Service Committee"، وغيرها من المنظمات غير الحكومية، التي كلها تعمل على ترويج المصالحة على اعتبارها السبيل الوحيد للتغلب على النزاعات العرقية. وفي أغلب الحالات يحققون إنجازات متواضعة، إذا أخذنا بنظر الاعتبار جسامة حجم القضية

التي يتناولونها بكامل أبعادها. وغالبا ما يتبع انتصاراتهم عراقيل واتهامات من قبل أولئك الذين لم يجدوا تفاؤلا وأيضا من قبل المثاليين. ففي رواندا على سبيل المثال، حيث حضرتُ مؤتمرا عن المغفرة والتسامح في شباط من عام 2009، قابلت هناك العديد من الذين يقدمون طاقاتهم لبناء مجتمع جديد مبني على المحبة والثقة. لكن هناك ولحد الآن أعداد أكثر منهم ممن يدّعون بأن المصالحة هي حلم فارغ. وبعض من هؤلاء يروّجون علنا أيديولوجيات ومفاهيم قديمة من التي تؤدي إلى مذابح الإبادة الجماعية. وفي مواجهة واقع كهذا فإن "جان بولس" يُعتَبَر حقيقة واقعة. فيقول:

> بالرغم من أن دوامة العنف تبدو غالبا بلا نهاية. فكل حادثة منها تستدرج أخرى. إذ أنَّ كل شخص أو كل جماعة لهم عدوهم الشخصي كما يبدو الأمر. ومما يثير السخرية، فإن هؤلاء "الأعداء" غالبا لم يعودوا موجودين من حوالينا. وفي حالات كثيرة فهم لم يعودوا موجودين حتى على قيد الحياة. أما في نظري، فإن العدو الحقيقي هو ذاك الذي نواجهه كلنا، ألا وهو: الغضب والاستياء اللذين نحملهما معنا خلال اليوم وأينما ذهبنا؛ وكذلك الخوف والقلق والوسواس الذين ننام معهم كل ليلة. فلا نحتاج إلى ناس آخرين! فإننا نقتل أنفسنا بأيدينا.
>
> إن الناس ما زالوا مأسورين: بالخوف، والغضب، وعدم الثقة، والتشكيك، والانتقام. ولا تزال هناك مرارة الكراهية والاستياء، ولا تزال نظريات التفرقة العنصرية التي كانت وراء المذابح الجماعية تُدرّس في مدارسنا. والناس الذين قد قضوا أعواما وراء القضبان يعودون الآن إلى بيوتهم، وإذا قابلتَ أحدهم – إذا قابلتَ مَنْ قتل ابن عمك أو عمك أو أمك، وتكلمتَ معه – فلا يسعك التكلم معه مثلما كنتَ تتكلم معه سابقا. فالأمر مستحيل بدون محبة. فالمحبة وحدها هي القادرة على إعتاقنا وتحريرنا من قيود الأحقاد الماضية وأيضا وحدها التي توافينا بالشفاء الحقيقي.

ويتعذب الكثير من الناس في العالم من جراء هذا، فالأمر ليس محصورا في رواندا فقط. ومما يزيد الفاجعة، هو أنهم يتصرفون كما لو أنه ليس هناك أي مخرج من هذا المأزق. ويقولون: "إن مثل هذه الأمور تحدث. فهذا هو الطريق الذي تسير عليها الحياة"، ولن يتكلموا عن الحلّ، الذي هو الغفران. غير أنَّ تقليدا من المغفرة هو وحده الكفيل بإيقاف دوامة العنف واليأس ويحرك عوضا عنها دوامات جديدة من الأمل والمحبة.

ولنْ يحدث هذا بين ليلة وضحاها، لأن الغفران هو مسألة اختيار شخصي بحت. فالغفران يقتضي من المرء أن يجري تفحّصا كاملا لروحه وكيانه. ويحتاج الناس إلى أن يتمّ توضيح الدواعي والأسباب لهم لخوض كل هذا العناء. ويحتاجون إلى سماع قصص حقيقية عن الغفران، لكي يتأثروا. كما يحتاجون إلى رؤية شاملة عن كيفية سير الأمور إذا سمحوا للغفران أن يقودهم، حتى يحصلوا على الأمل والاندفاع.

إن رؤية كهذه تشبه فحوى أغنية قديمة للكفاح من أجل الحرية من الستينيات، حيث تقول:

> لا تقوى يد رَجُل واحد على كسر السجن
> ولا تقوى أيدي رجلين على كسر السجن
> لكن إن كان اثنان مع اثنان مع خمسين ينتجون مليونا
> فسنرى ذلك اليوم يتحقق...

فهذا هو الأمل الذي جاء بضحايا ومرتكبي جرائم "التصفية العرقية" في عدد من القرى في كوسوفو ليتجمّعوا ويحرثوا تربة المزارع المشتركة؛ وهو الشيء نفسه الذي دفع الناجين المسيحيين جراء اضطهاد المسلمين في عامي 1998 – 1999 في جزر "مالوكا Maluka Islands" الأندونيسية ليغفروا إلى من حرق منازلهم واغتصب زوجاتهم وبناتهم.

وهو يستمر كذلك بإلهام نشاطات إبداعية أخرى في كافة أنحاء العالم، مثل المشروع المسرحي الذي أقيم في مدينة "بيتسبرج Pittsburgh" الأمريكية في صيف عام 2008 الذي جمّع فيه يهودا إسرائيليين ومسلمين عرب ومسيحيين

أمريكان، من أجل مجتمع إنساني. وقد استعملوا أسلوب المشاهد المسرحية التي كانت تحكي قصص المعاناة لكلا الطرفين، وتمَّ دعوة الخصوم بعدئذ لتبادل الأدوار ليتخيلوا أنفسهم وهم في مكان وظروف خصومهم، ويناقشوا حلولا جديدة عوضا عن مجرد تكرار إعادة المشاكل القديمة. (بعدئذ، صمّم المشاركون أن يأخذوا معهم إلى بلادهم ما تعلموه هناك، لاستخدامه كأداة لصنع السلام.)

ويقول مدير المشروع "روني أوستفيلد Roni Ostfield": "هناك الكثير من المخاوف وسوء الفهم والجروح لدى جميع الأطراف". ويردف قائلاً: "إنه ألم حقيقي، لكننا دائماً نأمل أنه إذا فتح شخص واحد قلبه للمحادثات مع الطرف الآخر، ربما سيؤثر على عشرة أشخاص آخرين، ومن ثم لها أن تنمو من هناك".

ولِما لا؟ فقد انتهرت "مارجريت ميد Margaret Mead" الأخصائية في علم الإنسان في إحدى المناسبات موضوع التشكيك في قدرات المجاميع الصغيرة، قائلة: "يجب علينا ألّا نشك أبدا في قدرة أية جماعة صغيرة من الأفراد الملتزمين على تغيير العالم... بالحقيقة والواقع، أن أمثال هؤلاء هم الذين قد أثّروا في العالم". وصدقت كلماتها مجددا قبل عدة سنوات عندما استيقظنا على حادثة مجزرة مدرسة جماعة الـ آمِش Amish (وهي طائفة مسيحية ملتزمة ولها أسلوب حياتي بسيط).

ففي الثاني من شهر تشرين الأول عام 2006، دخل سائق شاحنة لبيع الحليب واسمه "تشارلس روبرتس Charles Roberts" ومن دون إعلام مسبق، دخل إلى أحد صفوف مدرسة جماعة الـ آمِش التي كانت قريبة من مكان سكناه في شرق ولاية بنسلفانيا، وأمر الفتيان والمعلمين بترك المدرسة. وبعد ربطه لأقدام الفتيات المتبقيات، استعد "روبرتس" لرميهن بأسلوب الإعدام، وببندقية رشاشة ومعه 400 إطلاقه من العتاد الذي جلبه لهذه المهمة.

توسلتْ إليه أكبر فتاة كانت موجودة هناك، التي كانت بعمر 13 سنة، قائلة: "أطلق النار عليّ أولاً ودعْ الصغيرات يذهبن". وعندما رفض عرضها، أطلق النار على جميعهن، قاتلاً خمس منهن وتاركاً الأخريات بجراح خطيرة. ومن ثم أطلق النار على نفسه أثناء انقضاض قوات الشرطة على المبنى.

لا يعلم أحد دوافعه الحقيقية، لكنه كان قد أخبر الفتيات في المدرسة أنه كان غاضباً على الله لأنه أخذ ابنته الصغيرة منه، التي ماتت كطفلة قبل عدة سنوات.

وما هي إلا ساعات حتى استولت هذه القصة على وسائل الإعلام في العالم. وعند المساء، ملأت الفرق التلفزيونية تلك القرية الصغيرة المسماة "نِكل ماينز Nickel Mines". وبقوا هناك حوالي أسبوعا كاملا، إلى أن تمَّ دفن القاتل والضحايا.

وعلى بشاعتها، فإن المجزرة بحد ذاتها قد طغى عليها فصل ثاني عجيب أضيف إلى القصة ألا وهو: الموقف الغفور للأسر التي فقدت بناتها. وفي الواقع، كان الدم بالكاد قد جفَّ على أرضية المدرسة عندما ذهب أفراد من تلك الجماعة المتدينة جدا ليزوروا أهل وأرملة الرجل المسلّح ليقدموا لهم تعاطفهم وليسألوا عن أحوالهم. وتعدى موقفهم الكلام – فقد أقامت جماعة

الـ "آمِش" صندوقا ماليا لجمع التبرعات لأرملة القاتل وأولادها. كما جمعوا الطعام لأسرة القاتل. وقد صادف أحد الصحفيين رجلا من الـ "آمِش" يجوب حقولا عديدة ويجمع التبرعات، في يوم المجزرة نفسه. والأمر الأكثر عجبا، هو أن نصف عدد الذين جاءوا إلى مراسيم دفن القاتل كان من أسر الضحايا الحزينة، وهناك أيضا أبدوا مشاعر المحبة ثانية لأرملته، "ماري"، ولأولادها الثلاثة.

يحبُ أغلب عامة الناس جماعة الـ "آمِش"، لكن في هذه الحادثة بالذات، رأى الكثيرون أن ردّ فعلهم لعملية القتل أمر لا يصدق. كما أشار إلى ذلك أحد مذيعي الأخبار القدامى في نشرته التلفزيونية: "كل الأديان تعلّم عن الغفران، لكن لا أحد يعمل بها فعلا مثلما تسعى جماعة الـ "آمِش" على فعله. فما الفرق يا ترى؟"

لا أعتقد أن الأمر كان هيّناً لجماعة الـ "آمِش" ليغفروا. فأنا شخصيا أعرف الكثير منهم، ولدي أصدقاء ممن يعرفون عددا من الأسر التي أُصيب أولادها. فهم ليسوا أكثر قداسة من غيرهم: وبالحقيقة، لم يكن الغفران بالنسبة لهم، كما هو الأمر بالنسبة للكثيرين، مسألة قرار يتخذه المرء لمجرد مرة واحدة في العمر. فقد أقتضى الأمر صراعاً وتجديد الالتزام بالغفران، وعلى صعيد يومي أحياناً.

فقد قضت إحدى الضحايا عدة أشهر في غيبوبة؛ في حين تُلِفَ دماغ أخريات، وسيحتجنّ إلى رعاية طبية خاصة باستمرار. وبعض الأسر خائفة جدا بحيث أنها ما تزال تدرّس أولادها في البيت ولا تبعثهم إلى المدرسة. وكل مَنْ مسَّه ذلك الصباح الرهيب سيظل يتعامل طيلة حياته مع الرواسب النفسية له.

أما إذا أطلقنا العنان للغضب والعداء ليسيّراننا جهارا، الأمر الذي أمسكت عنه جماعة الـ "آمِش" لقرون من الزمان، فسيكون الأمر مدمّراً – إنه هدر للطاقات التي ستستحوذ على نفوسهم وتتخذهم كرهائن وتقتلهم في النهاية، تماما مثلما أخذت بناتهم كرهائن وقُتِلن من قِبَلِ غضب أحد الأشخاص. وبالنسبة للمخلصين من أتباع يسوع المسيح فإن الخيار الوحيد

أمامهم هو ذلك الذي قدمه لنا على خشبة الصليب، حين قال: "يَا أَبَتَاهُ اغْفِرْ لَهُمْ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ."

إن الموقف الذي يريده منّا يسوع المسيح ليس موقفاً محبوباً من قبل الأكثرية ولا له شعبية واسعة في يومنا الحاضر، حتى في الأوساط الدينية. وفي حالات نادرة حيث يتمّ ترويج موضوع المغفرة علناً، نرى أن رد فعل الناس غالباً ما يرمي إلى زرع الشكوك في الموضوع، أو يسخر منه سخرية محضة. وهذا ما حصل في عام 2005 عندما فاجأت الكنيسة الأرثوذكسية الصربية المراقبين عبر أوروبا بطلبها لنظام "ميلوسفيج Milosevic". وجاء في الافتتاحية لبيان رسمي أصدرته ما يلي: "نحن نعرض بإخلاص المصالحة والمغفرة المتبادلة لأشقائنا المواطنين الألبان."

لكن الانتقادات قلّلت من شأن الاعتذار ووصفته بأنه حركة سياسية، لكن كان هناك آخرون ممن احتضنوا هذه الفرصة من أجل فتح الحوار. فقد أشاروا إلى أنه مهما كان تأثيرها، إلا أنها المحاولة الأولى من نوعها التي تميزت بتشخيص الأحقاد بكل أمانة، تلك الأحقاد التي أدت إلى وحشية تلو الأخرى في أرجاء المنطقة وعلى مدى أغلب سني العقد الماضي.

وعلى المنوال نفسه شكّك المتشائمون بمصداقية رئيس الوزراء الأسترالي "كيفن رود Kevin Rudd" عندما، وفي بدايات عام 2008، وجّه اعتذاراً رسمياً إلى سكان البلد الأصليين – الأبوريجين – عن سياسات الحكومة الطويلة الأمد في التمييز العنصري، والتشدّد في حصرهم وعدم السماح لهم بالانتشار، وأيضاً عن الاعتداءات التي تحصل على أرض الواقع. في حين رحّبَ آخرون بهذا الخطاب. وكان أحدهم قسيساً من دولة جنوب أفريقيا، وهو الأب "مايكل لابسلي Micheal Lapsley" فقال:

> مما لاشك فيه، أن الاعتذار لا يزيل حقيقة الظلم الذي تم اقترافه ولا الألم الذي ما يزال تشعر به أجيال متعاقبة من السكان الأستراليين

الأصليين. ومع ذلك، ليس هناك أيّ شكّ من أن اعتراف رسمي كهذا... يمكن أن يكون مرهماً للجروح، وهو خطوة كبيرة ونقطة تحوّل باتجاه رحلة طويلة من إعادة إرساء أركان العدالة وكذلك الشفاء للجميع...

كنتُ أسمعكم على مدى السنين تتكلمون عن إحساسكم الشخصي بالذنب والخزي على ما جرى في تاريخ بلدكم. وأنا متأكد اليوم من أن الكثير منكم أذرفوا دموع الفرح لقدوم هذا اليوم وبأسلوب مشرّف لمواجهة بصراحة الفظائع التي حدثت في الماضي ولبدء رحلة جديدة.

لم يكن ردّ الأب القسيس "لابسلي" مجرد ردّ أحد المراقبين. فقد تمَّ اضطهاده على يد حكومة جنوب أفريقيا لنضاله ضدّ نظام التمييز العنصري الذي كان في البلد، وقد حُرِمَ هذا الناشط المعروف دولياً بدفاعه "لتجديد العدالة" من دخول البلد، ولاحقاً فَقَدَ كلتا يديه وإحدى عينيه بانفجار طرد مفخخ. ومنذ ذلك الوقت كان يعمل مع ضحايا التعذيب وأسس جمعية مدينة "كيب تاون" لشفاء الذكريات، حيث قد قدم المشورة والمساعدة إلى مئات الناجين من العنف. وقد تعلّم أن الاعتذار – مهما كان شكله – هو بالغ الأهمية لأنه في كثير من الأحيان يمثل الخطوة الأولى الحاسمة التي بدونه لا يمكن لأيّ حوار أن يخطو أية خطوة، حتى لو لم نتطرق إلى موضوع مسامحة بعضنا لبعض.

إن قيمة عمل الأب القسيس "لابسلي" في مدينة "كيب تاون" لا يقدر بثمن وهو يتعدى حدود المدينة، لأنه يرينا مدى وعورة السير في طريق المصالحة وشكل دربه الحقيقي، وليس فقط فيما يخص الأذى الشخصي الذي تلقاه، بل أيضاً بين الناس الأصحاء جسديا ممن لهم تاريخ طويل ولقرون من الحروب والحقد المتراكم.

وباختصار، فإن عملا كهذا يتطلب الاستماع إلى الناس الذين عانوا من العنف، سواء كانوا من مرتكبي الجرائم أو من الضحايا، بالإضافة إلى مساعدتهم للتعامل مع مشاعرهم مثل الغضب والكراهية والشعور بالذنب.

الأب القسيس لأبسلي إلى اليسار مع المطران لوتوينج

أنه يعني توجيههم نحو المصالحة، وتعليمهم عن الغفران. ويتطلّب الأمر احترام التعددية العرقية والثقافات الدينية المتعددة على كوكبنا، والتسليم بأن جميع الناس هم كائنات روحية ولهم قيمة جوهرية. وأخيراً، يرينا الموضوع أنه ليس هناك أي طريق مفتوح للمصالحة بدون استعداد جميع الناس الذين كانوا أعداء سابقا أن يتحمّلوا مسؤولية الماضي معاً، ومن ثم الوعي بأن كل إنسان يمكنه أن يكون ضحية ومعتدي.

أن مواجهة الذات بهذا الأسلوب – أي أن ترى في داخل نفسك احتمالية أن تصير أنت بنفسك من ألدّ أعدائك – إنما هو تمرين صعب. إلا أنَّه يحرّرنا أيضاً. لأنه وبحسب ما تبيّنه فصول هذا الكتاب بكل وضوح لا توجد نصرة بدون صراع، ولا خلاص بدون ندم، ولا شفاء بدون وجع. فليس هناك ربيع بدون شتاء أو ما إلى ذلك. فما لم تَمُتْ البذرة وتدفن، لن تكون هناك أية حبة جديدة، كما يصفها الإنجيل.

في عالمنا المُنساق بالإثارة السريعة الإيقاع وأيضاً بدرجة كبيرة من الارتياب، فإن خبرا عن العمل الشاق والطويل الأمد لبناء قرية دمرتها المذابح نادراً ما نراه في النشرة الإخبارية المسائية. وأرى شيئا مماثلا يحدث في عملي عندما أتكلم عن المغفرة في المدارس العامة (ضمن برنامج: كسر الدائرة Breaking the Cycle)، فلا ينجذب الصحفيون أبدا إلى انعقاد مجلس مدرسي عن موضوع اللاعنف، في حين تتشوّه سمعة أية مدرسة في الحال وعلى طول إذا تعرضت إلى إطلاق نار، لكن، لماذا يجب أن يُقاس النجاح بالتغطية الإعلامية أو بمقدار شعبيته؟

قالت "دوروثي داي Dorothy Day"، وهي من إحدى معارفي القدماء، التي عملتْ لعقود في خدمة فقراء مدينة نيويورك، وهي مؤسسة حركة العمال الكاثوليكيين، قالت أننا عندما نحاول تغيير العالم فلا يكمن العائق الأكبر في الناس الآخرين أو في المؤسسات الأخرى، بل في مشاعرنا نحن، ألا وهي مشاعر فتور العزيمة والإحساس بعدم الجدوى. وقد انتهرتْ في أحدى مقالاتها الصحفية، قائلة: "نحن نستطيع تغيير العالم، إلى درجة كبيرة. فيمكننا رمي قطعة من الحجر إلى البحيرة ومن ثم نتيقّن أن انتشار موجاتها المائية التي تستمر بالاتساع ستصل إلى كافة أرجاء العالم".

إنني متأكد من وجود قصص عن المحبة والغُفران في العالم أكثر من قصص الحقد والانتقام. فكم ستنتظر أنت إلى أن تجعل قصتك مسموعة؟ متى سترمي بحجرك إلى البحيرة لتبدأ في صنع موجات مائية؟

خـاتـمـــة

هوذا الكل قد صار جديدا

على الرُّغم من أنّنا نطلب العدالة، إلاّ أنّنا يجب أن نُفكّر فيما يلي: إنّه في إطار العدالة لا يُمكن لأيّ مّنا أن يرى الخلاص، لكننا نُصلي طلباً للرحمة، وهذه الصلاة بحد ذاتها تُعلّمنا كلنا أن نقدم أعمال الرحمة.

قول من
وليم شكسبير William Shakespeare
ممثل ومؤلف مسرحي وكان كبير الشعراء الإنكليز

إنّ الغُفران هو قوة قديرة. فهو يحرّرنا من ماضينا، وبه نتغلّب على الشرّ. ويمكنه أن يشفي الشخص الذي يغفر والشخص المغفور له. وفي الواقع، يُمكن أن يُغيّر الغُفران العالم، إن سمحنا له أن يتدفّق من خلالنا بلا رادع. لكن كم مرةٍ تجدنا نقف في طريقه لنعوّقه ولا نجرؤ على إطلاق العنان لقُوّته! فنحنُ نُمسك بمفاتيح الغفران في أيدينا، لكن يجب علينا أن نختار: "هل سنستخدمها كلّ يوم أم لا؟"

في السنة الماضيّة تقابلت مرّتين مع رجل ينتظر الحُكم بإعدامه في ولاية كَنَتِكَت، وهو "مايكل روس Michael Ross" في السابعة والثلاثين من عُمره، وهو خرّيج من جامعة كورنيل الشهيرة.

مايكل روس

وهو سفّاح ومُغتصب للعديد من الضحايا. ولا يمكن لأحد أن ينكر فظاعة جرائمه، ولا يمكن لأحد أن يتجاسر ليتكلم بالنيابة عن أُسر ضحاياه، لأنه إن فعل ذلك، سيستصغر بل وسيتستّر على جسامة المُعاناة والألم الذي ما زالوا يحتملونه. لكننا من ناحية أخرى، يتحتم علينا أيضا أن لا نتغاضى عن رؤية اشتياق "مايكل" نفسه إلى المغفرة والشفاء. فاسمعوه يقول:

> أشعر بإحساس عميق بالذنب. نعم، فأنا أشعر بالذنب يغمرني، لدرجة أنّه يُحيط نفسي بالظلام، وبسُحُب كراهية النفس المُعذِّبة، والندم والأسى... فأنا أتوق إلى المُصالحة أكثر من أيّ شيء آخر. المُصالحة مع أرواح ضحاياي، ومع عائلاتهم وأصدقائهم، وأخيراً أتوق إلى المُصالحة مع نفسي ومع الله.

هل يحق لنا أن ندير ظهورنا لمثل هذا الرجل؟ أليس من الأفضل أن نُواجهه بكُلّ الرُعب الذي تسبّب فيه باعتباره أخ لنا في البشريّة؟ ليشفى هو أيضاً مثلما كلنا يحتاج إلى الكلام الصريح والموجِع ومن ثم الشفاء؟

في بداية هذا الكتاب كتبتُ عن رجل قتل فتاة تبلغ السابعة من عُمرها. وسألتُ: "هل يمكنُ الغُفران لرجل مثل هذا؟" لقد لاحظتُ تغييراً عجيباً لدى هذا الرجل خلال الأشهر التي تلت أول لقاء لي معه. ففي الوقت الذي كانت أحاسيسه ومشاعره بالبداية خَدِرة وكان يرى جريمته على أنها، بالرغم من بشاعتها، نتيجة حتمية لأمراض المجتمع، إلا أنَّه بدأ يتحمّل مسؤولية أفعاله بعدئذ. وأخذ يتعذّب من حاجته الماسة إلى التوبة وإلى المغفرة – وبكى أيضا لأجل الآخرين أكثر من بكائه على نفسه. وفي مقابلاتي مع هذا الرجل، رأيته يجابه الشر القابع في جريمته وأخذ تدريجيا يقرّ بمسؤوليته وأيضاً يتندم.

هل يمكنُ الغُفران لرجل مثل هذا؟ إن كنّا نؤمن حقا بقوّة الغُفران القديرة على تغيير الناس، فسيتحتم علينا الأيمان بأن مثل هذا الرجل يمكنه أن ينال الغفران كذلك. وطبعاً يجب علينا ألاّ نُقلّل مطلقاً من شأن جريمته التي ارتكبها أو إغماض العين عنها. وفي الوقت نفسه، يجب علينا أيضاً ألاّ نحرمه من فرصة التغيير. فكما قال "مارتن لوثر كِنج": "إنّ الغُفران له القُدرة على تغيير العدو ليصبح صديقا". والحقيقة هي أنّ الغُفران غيّر حياة هؤلاء الذين ذكرنا قصصهم في هذا الكتاب. كما غيّر البلدة الصغيرة التي تُدعى "موتِلِنجن" في الأربعينيات من القرن التاسع عشر. لذلك يجب علينا أن نُؤمن بأنّ الغُفران قادر على تغيير العالم كلّه اليوم.

نبذة من

سيرة المؤلف

المؤلف "يوهان كريستوف آرنولد Johann Christoph Arnold" وصلتْ مبيعات كتبه في مواضيع تربية الأولاد والزواج والموت وصنع السلام والغُفران إلى أكثر من 000،400 نسخة فضلا عن النسخ المنشورة باللغات المختلفة. فهو كاتب ذو تجارب غنية بصورة غير مألوفة وذو بصيرة شخصية. وهو قسيس أيضا، حيث قد قدم المشورة والنصح مع زوجته "فيرينا Verena" للآلاف من الأشخاص خلال الثلاثين السنة الماضية، من متزوجين وأطفال ومراهقين؛ ومدمنين ونزلاء السجون وضباط القوات المسلحة؛ ومعلمين وطلاب؛ والمريضين بأمراض مزمنة.

وغالبا ما يجري دعوة "آرنولد" كضيف في الندوات التلفزيونية وله شعبيته كمتحدث في المدارس والمؤتمرات الدولية فيما يخص دور الغُفران في معالجة الصراعات باللاعنف، وأهمية دور الغفران كخطوة في طريق المصالحة. كما يدير برنامجه الخاص المعروف باسم "كسر الدائرة Breaking the Cycle" في مجالس المدارس الذي يتخصص في معالجة انتشار العنف في المجتمع وترويج المغفرة بين صفوف الطلاب والمواطنين. وباعتباره ناقدا اجتماعيا، فقد اشترك في مبادرات لإحلال السلام والعدل في مناطق مختلفة من العالم. وقد أخذته رحلاته في المدة الأخيرة إلى أوروبا والشرق الأوسط وأمريكا الوسطى وجنوب شرق آسيا وأفريقيا – وإلى مدارسها ومستشفياتها وسجونها ومعسكرات لاجئيها.

ولدى "آرنولد" وزوجته ولدين وست بنات وخمسين حفيدا، ويسكنون في شمال ولاية نيويورك الأمريكية.

نبذة عن

مجتمعات برودرهوف المسيحية

BRUDERHOF COMMUNITIES

هويتنا

إنّ حركة برودرهوف Bruderhof (حيث تعني الكلمة بالألمانية مكان الإخوة) هي حركة دولية للحياة المسيحية المشتركة المسالمة التي يتألف قوامها من كل من الأسر والعزاب على حد سواء الذين يسعون لوضع وصايا يسوع المسيح في حيز التطبيق من محبة الله ومحبة القريب. ومثلما قد وُصِفتْ حياة المسيحيين الأوائل في سفر أعمال الرسل في الفصل الثاني والرابع، فقد دُعينا نحن أيضاً إلى تلك الحياة التي فيها الكل قلب واحد وروح واحدة، فلا يملك أحد أي شيء، بل كل شيء مشترك. كما نستقي الإرشاد والإلهام من حياة جماعة الأنابابدست Anabaptist التي انبثقت منذ زمن الإصلاح حيث التهبت صدورهم غيرة ومحبة ليتبعوا المسيح في مجتمعات مسيحية كليّة المشاركة على غرار المسيحيين الأوائل.

إيماننا

نؤمن بجميع تعاليم السيد المسيح وبالثالوث الأقدس وبقانون الإيمان الرسولي. ونؤمن بنعمة الخلاص التي قدمها لنا مجاناً الرب يسوع المسيح بموته على الصليب مسترخص دمه الثمين المسفوك كفارة لخطايانا ولخطايا العالم كله. ونقول مع القديس بولس الرسول: "**وَأَمَّا مِنْ جِهَتِي، فَحَاشَا لِي أَنْ أَفْتَخِرَ إِلاَّ بِصَلِيبِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ،...**" (غلاطية 6: 14)

ولا نؤمن بأن كنيستنا هي الكنيسة الحقيقية الوحيدة وبأنّ غيرنا من الكنائس ضالاّت بل نؤمن بأنّ كل من يتبع يسوع ينال الخلاص مهما كان انتمائه الطائفي. ولا نستعلي على بقية الأديان الأخرى أو نؤمن بأنّ مصير أفرادها العذاب الأبدي في جهنم لمجرد أنهم ينتمون إليها أو قد وُلِدوا في بقاعها، لأن المسيح جاء ليخلّص لا ليدين، فها هو يقول: "لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ، بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ". (يوحنا 3: 17)

وهذا يشمل حتى عدم إدانة الخطأة سواء كانوا مسيحيين أو غير مسيحيين، فالله تعالى هو الديّان. كما لا نؤمن بأنّنا سنحظى بملكوت الله إن كنا مهملين لوصايا يسوع المسيح عن عَمْدٍ وتنقصنا نار الحماسة لقضية الربّ وملوثين بالآثام ولا نتوب بعدما بيّن لنا الرب الطريق الصحيح. فقد قال السيد المسيح: "لَيْسَ كُلُّ مَنْ يَقُولُ لِي: يَا رَبُّ، يَا رَبُّ! يَدْخُلُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ، بَلِ الَّذِي يَفْعَلُ إِرَادَةَ أَبِي الَّذِي فِي السَّمَاوَاتِ". (متى 7: 21)

ونؤمن بضرورة أن يضع مجتمع الكنيسة - كجماعة - تعاليم السيد المسيح في حيز التطبيق يومياً ليقدم شهادة حقيقية عن الإيمان المسيحي الذي يشمل المشاركة والمغفرة والخدمة والتوبة اليومية. ومثالنا هو حياة جماعة يسوع مع التلاميذ، وحياة الكنيسة الرسولية الأولية في أورشليم.

لمحة تاريخية

بدأت حركة برودرهوف المسيحية في عام 1920م في ألمانيا عندما أخذت مجاميع من المسيحيين تبحث عن أجوبة لما قد حلّ من دمار في المجتمع بعد الحرب العالمية الأولى، فأسسوا مجتمعات مسيحية متشاركة تسترشد الهدى في حياتها اليومية من وصايا وتعاليم يسوع المسيح.

وفي سنواتها المبكرة زاد عدد أفراد الجماعة ليصل بضعة مئات واعتمدوا في كسب رزقهم على الزراعة وبيع كتبهم. وكان حالهم فقيراً جداً لأن مجتمعهم المسيحي فتح أبوابه لاستقبال اليتامى والأمهات الوحيدات وغيرهم من المحتاجين. وأشتدّ الفقر عندما جاء النظام النازي إلى الحكم وحرَّمَ بيع كتبهم وغيرها من الحِرف التي كانت للجماعة.

وفي عام 1937م حاصرت قوات الـ "SA" أرضنا (وهي قوات عسكرية متخصصة بالانقضاض)، وسجنت العديد من أعضاءنا، وأمرتنا بمغادرة بلدنا ألمانيا في غضون 48 ساعة. وقد كتب أحد ضباط البوليس السري – الجستابو –بأنّ هذا المجتمع المسيحي، "يمثل نظرة عالمية معارضة تماماً للاشتراكية القومية لألمانيا". والنظرة العالمية (بحسب ما سماها) تضمّنت رفض الجماعة لأداء التحية (الاستعبادية) لهتلر، وللخدمة في الجيش، ولقبول معلمي المدارس النازيين في مدارسهم الخاصة.

ولحسن الحظ، ولكون الجماعة كان لها أعضاء بريطانيين، تيسّرت الهجرة إلى انكلترا. وقد تمَّ شراء مزرعة في مقاطعة "كوتسوولد Cotswold" في عام 1938م، وزاد عدد الجماعة لأكثر من 350 فرداً في خلال السنين الخمس التي تلت.

ولما كانت الحرب تلوح في الأفق، أثار المزيج بين الأعضاء الانكليزيين والألمانيين شكوكاً من قبل الناس في المناطق الريفية البريطانية، ولاسيما عندما بدأت سياسة الحكومة في اعتقال "الأجانب الأعداء" تؤثر على الجماعة المسيحية الأخوية. فعرضت الحكومة البريطانية على الجماعة خيارين: إما اعتقال جميع الأعضاء الألمانيين أو مغادرة الجماعة كلها البلاد. وفي عام 1941م وبعد تصميم أفرادها على أن يبقوا معاً، قرروا أن يلتجئوا سوية إلى بلد آخر.

وكانت الدولة الوحيدة – أثناء الحرب العالمية الثانية - التي قبلت جماعة مسالمة متكونة من انكليز وألمان هي باراغواي. فسافر جميع الأعضاء بأمان عبر المياه التي كانت تنتشر فيها الغواصات العسكرية المعادية وشرعوا في بناء مجتمعهم المسيحي في الأدغال هناك.

وفي غضون العشرين عاماً التي تلت، تمَّ تأسيس ثلاثة مجتمعات مسيحية في البلد، فضلاً عن مستشفى قدمت خدماتها إلى الجماعة بالإضافة إلى عشرات الآلاف

من السكان الأصليين في باراغواي. كانت الحياة في باراغواي صعبة، ومناخها قاسٍ وغير مألوف علينا، وفيها أمراض مدارية، وانعزال عن العالم الواسع.

وأثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها، زاد اهتمام الكثير من الأمريكيين الشباب بالحياة المسيحية المشتركة. فأخذت العشرات منهم تزور مجتمعاتنا المسيحية في باراغواي، وفي عام 1954م تمَّ تأسيس مجتمع "وودكرست Woodcrest" المسيحي في ولاية نيويورك في وسط وادي نهر "هدسن Hudson". وأخيراً أنتقل جميع الأعضاء من باراغواي إلى الولايات المتحدة الأمريكية وانكلترا. ومنذ ذلك الحين تمَّ تأسيس مجتمعات مسيحية أخرى في ألمانيا واستراليا ومرة أخرى في باراغواي.

الحياة المسيحية المشتركة

إنّ حياة المشاركة في العمل والعبادة ووجبات الطعام تمنحنا يومياً فرصاً لتجسيد معتقداتنا على أرض الواقع. فكل فرد، بغض النظر عن مدى قابليته، قادر على أن يساهم بشيء ما.

والأعضاء يقدمون نذورهم المؤبدة بالطاعة والفقر وخدمة الجماعة. وكل من يرغب في الانتماء يجب عليه أن يكرس كل ما يملك (أو تملك) وأيضاً كل مواهبه ليقف على أرضية واحدة سويّة مع كل الأخوة والأخوات.

واليوم، يوجد أكثر من عشرين مكاناً لمجتمعات برودرهوف المسيحية في أرجاء العالم. وحوالي نصفها تشبه القرى القائمة بذاتها وتتكون من 100- 300 شخص. ويداوم الأولاد في رياض الأطفال والمدارس الابتدائية الخاصة بالمجتمع، ويعمل الكبار حيثما

تحتاجهم أقسام العمل في المجتمع، مثل قسم غسيل الملابس، أو المطبخ، أو العيادة الطبية، أو واحدة من المصالح التي نسترزق منها. وتجتمع الجماعة يومياً للعبادة وتناول وجبات الطعام وغيرها من الفعاليات.

بالإضافة إلى تلك المجتمعات المسيحية الكبيرة، لدينا بعض الأخويات الصغيرة التي تعيش أيضاً حياة مشتركة في المدن الكبيرة مثل نيويورك ولندن. وبسبب وعودنا بالطاعة، يُحتمل أن يُطلب من أي عضو لنا بالانتقال إلى مجتمع مسيحي آخر، كبير كان أو صغير، وأينما كان في العالم.

نسعى دائماً إلى الاتفاق بالإجماع التام مهما كلف الأمر لتحقيق وحدة حقيقية صافية في القلوب.

الأسـرة

إنّنا نؤمن بأن الأسرة هي الأساس الصائب لأي مجتمع كان، وننظر للزواج على أنه مديد الحياة وأيضاً التزام مقدس.

أما تربية الأولاد فيتحمّل الأهل المسؤولية الرئيسية فيها، بالرغم من أن المجتمع يوفر لهم حضانة ومدارس من أعمار مبكرة.

ويتمّ تنشئة الأولاد في المجتمع المسيحي ليصبحوا مواطنين مسئولين يساهمون في بناء البلد مهما كان الطريق الذي يختارونه لحياتهم.

إن العضوية في مجتمعنا المسيحي ليست حقاً مكتسباً بالولادة. فيجري تشجيع الشباب على الحصول على خبرات حياتية في أماكن أخرى أيضاً وكذلك

حثّهم على اكتشاف مشيئة الله لحياتهم. أما تقديم النذور المؤبدة في خدمة يسوع المسيح ضمن المجتمع المسيحي فيجب أن تكون دعوة إلهية شخصيّة للفرد وقرار حرّ نابع عن إطلاع ووعي من قبل الشخص البالغ.

وتجري رعاية العجزة والمعوقين من قبل الجماعة نفسها، وهم يشاركون في مختلف الفعاليات والأنشطة التي تجري في المجتمع المسيحي، ويعملون ما داموا قادرين على ذلك.

التربية والتّعليم

تدير مدارس المجتمعات المسيحية للكنيسة عددا من رياض الأطفال والمدارس الابتدائية وحتى الثانوية، وتقدم دراسات أكاديمية متشدّدة وتعليم واسع في الفن والموسيقى والتأكيد على التحلّي بالروح الرياضية، بالإضافة إلى الكثير من الحرف اليدوية الماهرة. ومن الأولويات المركزية لمدارسنا هو أن نلهم الأولاد على محبة التعلّم طوال حياتهم وأيضاً خدمة الآخرين. ويشدّد المنهج على أسس القراءة والكتابة والحساب وأيضاً على وجود علاقة قوية مع عالم الطبيعة بدلا من الاعتماد على التكنولوجيا.

بعد المدرسة الثانوية، يواصل العديد من الطلاب السعي في التدريب المهني أو الأكاديمي، في حين يتعلم الآخرون إتقان بعض المهارات في مهن معينة من خلال التدريب.

العمل

إنَّ جميع جوانب الحياة اليومية لدينا هي بمثابة إعلان حيّ لإيماننا، والعمل ليس مستثنى من ذلك. ويساهم كل فرد في دعم وإعالة المجتمع ورسالته.

ولا يستلم أي فرد أجوراً على ما يقوم به من خدمات، سواء كان يعمل كسبّاك أو طباخ أو مهندس أو طبيب أو معلم. وعملنا المشترك هو تعبير عن التزامنا بخدمة بعضنا لبعض. ولا يركض الأعضاء لا وراء ممارسة مهنهم الشخصية ولا وراء مركزهم الاجتماعي في أو خارج المجتمع المسيحي ولا حتى القيام بأنشطة لغرض الترقية الشخصية.

وجميع مجتمعاتنا المسيحية الموجودة في أرجاء العالم لها صندوق مالي مشترك واحد.

التواصل مع الآخرين

يكمن في صميم مجتمعاتنا المسيحية اشتياق للتواصل مع المجتمع الأوسع في العالم حوالينا.

وبالإضافة إلى التواصل بشتى أنواعه الذي نجريه محلياً من زيارة السجون ومن مشاريع التطوير العمراني في المدينة على سبيل المثال، إلا أنَّ المؤسسة الخيرية العامة التابعة لمجتمع كنيستنا Church Communities Foundation تعمل سوية مع منظمات إنسانية عديدة مثل منظمة أوكسفام للإغاثة Oxfam، ومنظمة أنقذوا الأطفال Save the children، ومنظمة أطباء بلا حدود Doctors without Borders، والهيئة المركزية لجماعة المينونايت Mennonite Central Committee، ومنظمة الرؤية العالمية World Vision،

ومنظمة مُرسَليّ ماري كنول لاي Mary knoll Lay Missioners لمساعدة ضحايا الفقر والمرض والكوارث الطبيعية.

ومن خلال تعاوننا وعملنا المشترك مع التربويين والأهالي والسلطات المحلية وأيضا مع أصحاب السوابق الذين نبذوا حياة الإجرام، فقد قدمت حركة برودرهوف برنامجاً يدعى "كسر الدائرة Breaking the Cycle" www.breakingthecycle.com لمجالس العشرات من المدارس الثانوية في انكلترا والولايات المتحدة الأمريكية وفي غيرها من الدول الأخرى بغية مكافحة العنف المتفشي. ومتحدثي هذه المجالس هم من الذين قد رأوا قوة وقدرة المغفرة العجيبة من تجارب حياتهم الشخصية.

دار المحراث للنشر

ينشر "دار المحراث لنشر الكتب House Plough Publishing" الخاص بحركة برودرهوف كتبنا وصحفنا منذ عام 1920م. وقد تُرجمت الكثير من

كتبنا التي تشمل الكتابات الروحية الشهيرة، والكتب المُلهِمة، وكتب الأطفال، إلى عشرات اللغات، وصار عدد منها من أكثر مبيعات الكتب وفقا لإحصائيات كل من المكتبات الدينية والعلمانية. ويمكنكم زيارة موقعنا على الشبكة:

www.plough.com/ar

الاتصال بنا

إذا أحببتم الاتصال بنا فيمكنكم الكتابة إلى أحد العناوين البريدية التالية:

Woodcrest Community 2032 Route 213 Rifton NY 12471 tel: 001(0)845.658.7700 United States	Sannerzgemeinschaft Lindenstrasse 13 36391 Sinntal-Sannerz tel: 0049(0) 6664.402.498 Germany
Darvell Community Brightling Road Robertsbridge East Sussex TN32 5DR tel: 0044(0) 1580.883.330 England	Villa Primavera Correo Paraguayo Agencia MultiPlaza Casilla de Correo No. 16051 Asuncion tel: 00595(0) 21-608-938 Paraguay
Danthonia Community Glen Innes Road Inverell NSW 2360 tel: 0061(0) 2.6723.2213 Australia	Spring Valley PO Box 260, 100 Spring Valley Road Farmington, PA 15437 Tel: 001(0)724.329.1100 United States

أو يمكنكم ارسال رسالة إلكترونية Email إلى عنواننا التالية:

info@**plough**.com أو info@**bruderhof**.com

تنسيق زيارة

إذا أحببتَ زيارتنا للتعرف على طبيعة حياتنا فأهلاً وسهلاً بك في جميع مجتمعاتنا المسيحية، الموجودة في عدد من الدول، مهما كانت خلفيتك العرقية أو الدينية أو الطبقية. وما عليك إلاَّ أن تتصل بذلك المجتمع المسيحي الذي تود زيارته إما بالهاتف أو بالبريد العادي أو بالبريد الإلكتروني.

والزيارات التي نتلقاها من بلدان كثيرة مفيدة لكلا الطرفين حيث نتبادل فيها الخبرات عندما ينفتح بعضنا على بعض، ونتعلم نحن شخصياً من الزوار الشيء الكثير، بالإضافة إلى العلاقات الودّية التي نقيمها معهم.

وإنك كزائر ستعيش حياتنا اليومية، بدء من المساهمة في العمل وإلى المشاركة في الاجتماعات الروحية. فنحن لسنا بمركز لممارسة الرياضات الروحية أو سبيلا روحيّا للتهرّب من الواقع. وسوف لا تتلقى أجورا مقابل عملك معنا، لكنك من ناحية أخرى لن تحتاج إلى دفع تكاليف الطعام أو السكن عندنا.

وإذا كنت تريد اصطحاب أسرتك وأولادك معك، فيسعدنا ترتيب الغرف اللازمة وإدراج أولادك ضمن مجاميع الأولاد في مدارسنا الخاصة.

أما عن موضوع مدة الزيارة فيجري تحديدها بالتنسيق مع ذلك المجتمع المسيحي الذي تحب زيارته.

وللتعرف على مواقع جميع مجتمعاتنا المسيحية، وكيفية الاتصال بها، يمكنك زيارة موقع دليلنا الدولي على هذا الرابط:

www.**bruderhof**.com

فأهلاً وسهلاً بِكُم

كتب أخرى من إصدارات دار المحراث

لماذا يهمنا الأطفال

بقلم يوهان كريستوف آرنولد Johann Christoph Arnold الذي يقدم لنا نصائحا سديدة للتربية في عصرنا الحديث الذي يصعب فيه تربية الأولاد.

الجنس والله والزواج

بقلم يوهان كريستوف آرنولد Johann Christoph Arnold، وفيه كل ما يخص أمور الحب والزواج وخدمة العزاب.

التحرّر من الأفكار الأثيمة

بقلم هاينريش آرنولد Heinrich Arnold، حيث يدلّنا على سبل تحطيم قيود الأفكار الأثيمة وتجارب إبليس التي تراود كل إنسان..

مسيرتي في البحث

قصة حقيقية عن رجل لم يعرف الملل ولا الكلل في بحثه عن الحياة الأخوية الحقيقية بالرغم من كل الاضطهاد والتهجير الذي لاقاه.

المسيحيون الأوائل

كتاب أعدّه العلامة اللاهوتي ايبرهارد آرنولد Eberhard Arnold حول حياة المسيحيين الأوائل التي تعرّي بدورها فتور وعولمة حياتنا المعاصرة وتضعنا أمام الرهان.

التفاني في خدمة الملكوت الآتي!

كتابات ومواعظ القسيس الألماني الموهوب بلومهارت Blumhardt الذي يجعلنا أمام المحك لنتوقع تدخل ملكوت الله في حياتنا الآن، وليس فقط في الآخرة.